خيرية فتحي عبد الجليل



الأطياف الناطقة

رواية

(1)

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة شاهقة العراقة ، تجري وقائعها ذات زمن بائس لا يمكن وصف سماء المدينة بطلاقة أو التحدث عن شمسها بفصاحة تامة أو النيل من قمرها الباهت ولا يمكن وصف ليلها أو نهارها ، تقع أحداث هذه الرواية في مدينة لا يمكن التكهن بطقس وتقلبات قلوب أهلها أو وصف ملامح أبطالها ، ذلك لأنهم أبطال أصبحوا ذات ليلة دامسة بليدة باهتة بلا ملامح ، ومدينة تحولت ذات شتاء بلا طقس أو تضاريس أو مناخ ، تقع أحداث هذه الرواية في مدينة البيضاء الجبلية ، تلك المدينة الليبية العريقة في شتاء عام 2016 م على بُعد 5 سنوات من عام النكبة ، تلك النازلة التي طمست ملامح العباد والبلاد وعاثت فساداً في الأرض والسماء وحورت طبيعة الأشياء ، لعبت وعبثت وطالت وتطاولتْ ومسختْ ، ومسحت ، مسحت كل شيء .

جعلتنا تلك النازلة نشد على قلوبنا وذاكرتنا وأرواحنا حتى لا تتسرب هويتنا الغالية ، هكذا نحن الصفوة التي لزمت ديارها خشية الفتنة الكبرى .

الظلم والظلمات شبحان يهيمنان على الشوارع ويختبئان بين الأزقة ، يرافقان المارة في الحواري والطرقات يقومان بزرع الدسائس ورشق الفتن تحت سطوة برلمان وحكومة لا كرامة لهما ولا سلطان .

لا سيولة مالية في المصارف ، لا كهرباء ، لا غاز لطهي الطعام ، ارتفعت الأسعار بشكل أثقل كواهل الرجال ، غاب رغيف الخبز فساءت أخلاق الناس .

لم نكن شجعانا بما يكفي لإشعال فتيل ثورة حقيقية ، وقفنا خلال هذا الشتاء من عام 2016م في المنتصف ننتظر اللحظة المناسبة نرتجف خوفاً وبرداً بين صقيع سبتمبر وزمهرير فبراير ، لم نكن شجعاناً بما يكفي لعبور فبراير ولا أبطالاً نبلاء نعترف بالخطيئة ونرجع إلى سبتمبر.

نحن الصفوة التي لزمت ديارها خشية الفتنة الكبرى ، هل نجد مخرجاً بعد أن شبعنا جوعاً ويأساً ومرضاً ، هل نجد مخرجاً بعد أن شبعنا خذلانا وخزياً وعاراً ، وأنا معلمة الحاسوب مربية الأجيال أنا الكتابة لهذه السطور لماذا لم أجد مخرجاً ساعة وقفت أرتعش من شدة الخوف ، أقسم بالله في تلك اللحظة بالذات كنت أرتجف من شدة العار أكثر من ارتجافي من شدة الخوف وأحدهم يقف مسددا رمانته في وجه مديرة المدرسة مهدداً أنه سينتقم ويفجر المدرسة إذا لم نقم بحل امتحان الحاسوب للشهادة الثانوية عام 2012م على بُعد عام واحد من النكبة .

، نحن الصفوة لم ننشق عن النظام السابق ولم نؤيد النظام السابق ولم نخرج في فبراير ، لم نكن من رعايا ملك الأمس ولا من أتباع مشيرات اليوم ، كان صمتنا أكبر من جريمة

تمر هذه الأحداث في غفلة من الأوضاع المتردية في البلاد ، و هبوط أسعار النفط ، وصراع أكثر من حكومة على السلطة ، حكومة منبثقة عن مجلس النواب قائمة في شرق البلاد وحكومة الإنقاذ المنبثقة عن المؤتمر الوطني مهيمنة غرب البلاد ، تدور هذه الأحداث مع انخفاض قيمة الدينار الليبي بشكل ملحوظ وارتفاع الدولار ، تجري هذه الأحداث تحت جنح ليل حالك السواد في زمن لا يمت بأية صلة إلى زمننا العادي والمألوف و مكان لا أبعاد له رغم أنه يقع داخل المدينة الغارقة في وهم وغبار وضباب ، المدينة التي يكتنفها الضباب والصقيع والوجع ، أبطال هذه الرواية أطياف بلا ملامح ، لا وجود مادي ملموس لهم ، ليسوا من عالم نتحسس الطريق إليهم باللمس ، أو الشم أو التذوق ، ولا هم من العالم الافتراضي الموجود أصلاً .

تأتي هذه الأطياف مع تردي الوضع الصحي في المدينة وانتشار الأمراض وغياب أدوية القلب و التطعيمات ، تأتي مع هجرة حوالي 90 % من الأطباء الأجانب وتركهم البلاد بسبب نقص السيولة ، تأتي هذه الأطياف وتهيمن على الجسد والقلب والروح

حيث حرارة ارتفاع ثمن الدواء الباهظ أعلى بكثير من حرارة الجسد المحموم وحيث تفضل مصارعة المرض اللعين على أن تقف أمام بائع الدواء الذي تجرد من إنسانيته ، تقف مهزوماً تحفر نظراتك وتهيم في الأرض خالي الوفاض والجيب إلا من دمعة مخنوقة لا تدحرجها إلا وأنت خارج المكان مريضا مقهوراً بلا كرامة أو دواء .

عندما تتقطع بك السُبل ، عندما تمسح المكان بعينين زائغتين مليئتين بالدموع ونظرة استجداء فلا تجد إلا السراب ،

عندما تسُد المنافذ والطرق على أبجدية عاشقة ، عندما يتعثر الكلام وتختلط التأتأة بالدموع وتخذلك العبارة ويغوص نصف الكلام في الحلق وتتباطأ الخطوات ، ترتبك وتتكسر أمام المسارات المفروضة والمسارب المزروعة بعلامات الحذر والتوقف والشك والسؤال ، تقف في المفترق تجد نفسك في مهب ريح ولا من معين ، عندما تتوسل وتدعو وتستنجد فلا يستجيب سوى صدى نشيج حنجرتك الباكي ، وتكون لحظات الفرح مصادفة قد تأتي وقد لا تأتي ، عندما تشتاق وتموت اشتياقا للحظة نادرة لا تأتي وزمن فات ، عندما يتقاسم أطفالك كسرة خبز ، وتتكسر نظرتك أمام طوابير البشر ، يطاردك لهاث طفلك المريض الجائع أمام باب الجامع ، تستدير عائداً ، تطلق صرختك ولا تدخل للصلاة ، تخجل

من الله ومن الوقوف خلف إمامٍ ملطخ الثوب بالنفاق ، تتمنى أن تقتل صوت الخطيب المتلون ببحة شك، عندما تتأبط العجائز الفراغ وتستجدي الأمهات دفء الأرصفة ، ولا تسمع إلا صوت التمتمة في زمن البوح والكلام .

عندما تبحث عن مكانٍ للصلاة فلا تجد ، كل الأرض ملطخة بماء طهر كاذب .

تأكد أن لا وطن لك فأرحل.

وكان الرحيل الفاجع توغلاً في الزمان وسفراً للروح على بُعد كم هائل من السنوات الضوئية البعيدة التي لا يمكن أن تقاس بوحدة زمننا العادية ، لا هي قبل الميلاد ولا بعده ، على بُعد كم هائل من سنة ميلاد هذا الظل الذي يشاكسني في هذا الزمن اللعين بل ويعبث بي ليلاً رحلت وتوغلت في مسافة زمنية شاسعة .

يأخذني هذا الظل بعيداً ، يأخذني على بُعد هذا الارتفاع الشاهق من السنوات ، يأخذ بيدي ويجرني بعيداً عما يدور في زمن الربيع المنكوب للوطن ، يرتسم ، يهتز على جدار غرفتي ، يهتز طرباً لجهلنا وغبائنا ، يسخر من تأخر معارفنا ، يشمئز من قلة تدبرنا وضيق حيز مداركنا ، أدير ظهري ناحية حائط غرفتي اللبني الملاصق لسريري ، أستدير كي أواجه هذا الظل ، هذا الطيف شديد الشفافية فيئز السرير تحت ثقل جسدي المرهق وتنتبه والدتي

، تقطع تراتيل المساء ، تنظر إلىّ في شفقة ، تتنهد ، تسأل عن حالي فأجيبها

- انها معدتي ، الحموضة كالعادة ، سأكون بخير .

أتحسس الحائط بسبابتي المرتعشة فيهرب الطيف ساخراً ، وتهطل رسائله الهاتفية شامتة ، يهبط عليّ في قسوة وتهطل رموزه وإشاراته الهاتفية في غزارة .

كان طيفاً أنيقاً وجذاباً ،نحيلاً وطويلاً ، ينسل في هدوء ويتدحرج بسهولة يغادر حائط غرفتي ويغمرني ، أحسه بلا جسد ، أنامله تجس أشيائي دون رحمة وتجوس متجولة في أعماقي بلا هوادة .

كان ينحت في أعماق ذاكرتي أثار زمنه الآتي من خلف ردهات ملايين السنين القادمة .

قبل رحيله الليلي و نهاية الزمن المقرر لزياراته المتكررة يزرع هذا الطيف في روحي أعتق المنافذ وأنفس ما كتبه لقاء حار على جدار زمن ما ، قبل الرحيل يترك هذا الشبح في جوف ذاكرتي كلمات وفي حنجرتي صوتاً يتسلل ليلاً يتوحد مع الريح ليصل ، يتفحص المكان ، يقف على مقربة من زمن اللقاء ، يعانق ما تبقى من آثارنا ليعلن وقوعي عشقاً في شباك هذه الأطياف .

ظهر لي أول مرة عند منتصف الليل بعد وفاة والدي بأيام ، وقتها ، ظللت أرتجف رعباً ، حدقت كثيراً في الظلام وتفرست في جدران غرفتي ، فتحت عيني ثم أغلقتهما عدة مرات ، هل ما أراه حقيقة أم أنه جزء من خزعبلات الخيال الجامح ، راح الطيف يتمتم بكلام غامض غير مفهوم ثم اختفى وظل هاتفي يرن رنيناً متواصلاً ورقم محلي غريب يتصدر شاشة هاتفي الجوال ورسائل هاتفية تهطل بغزارة .

- مع إطلالة الساعة (25) تعانق الأطياف الناطقة براح بوحها الساحر انسياباً وإبحاراً و انصهاراً لتنسج حلماً يحطم سراب المستحيل .

اهتز جهازي الصغير تحت وسادتي هطلتْ رسالة أخرى غامضة تحمل إشارة لم افهم منها شيئاً

- تحرروا من براثن ثقافتكم الملوثة .

ظللتُ أرتجف طويلاً تلك الليلة ، حابسة أنفاسي أحملق في الفراغ ، لكنني أخير هدأت ، سكنتْ نفسي واستسلمت له ، سقطتُ إلى الداخل ، تشبثتُ بأغطيتي ، تدثرت ، غصت في سريري ، ثم غمرتني سكينة مفاجئة ، تمددتُ ببطء ، شعرت بدفء لذيذ غامض ، أغمضت عيني ، تنهدتُ ، غرقت في غيبوبة لم أعرف مثيلاً لها طيلة حياتي وسلمتُ له طائعة ، سلمتُ في كل ما أملك .

عند الفجر عادة ما ينتبذ زاوية قصية ، ظلاً يتسلل خلسة ، يتسرب من شق النافذة ، يجلس القرفصاء عند حافة سريري ، يسهر على راحتي ، يمسح بيد محسوسة على رأسي ، ينفث أنفاسه متفقداً جبيني ووجهي بشفاه عاشقة ، ناطقة ، يتلو متمتماً احدى قصائده الغامضة وكنت أتمنى أن لا تنتهي عذوبة اللحظة .

ذات ليلة تخلصتْ ذاكرتي من آثار زمنه القادم وعادتْ بي الذكريات إلى زمن جدّتي النبيل .

كانت جدتّي تنقش مسارب كثيرة للفرح فوق خطوط حناء يدها وكانت تخضبها برائحة الوطن وأنا الحفيدة الجاثية بمحاذاة مخدعها العتيق ، أتتبع المسارب ذاهلة ، فاغرة الفم والذاكرة.

ساعة الولادة المبكرة

كانت نظرات الجدة الصارمة قادرة على إقناع العالم بالحق الخالد لي في البقاء ، حضنها كان يتسع ويفيض ومخدعها المصنوع من الصوف كان أكثر دفئاً من أي حاضنة طبية متطورة في العالم ، قطرة الماء المشبعة بالسكر كانت تغني عن كل وجبات الأطفال ولحوسات الصيادلة . قطرة الماء المشبعة بالسكر كانت مشبعة بالحنان والعافية،مخدع الجدة كان براحاً للتأتأة والمناغاة والمناجاة. بعد الزمن النبيل عشتُ ولا زالتُ أعيش سلسلة من الصراعات والحروب من أجل إثبات وجودي في الحياة ، منذ لحظة الميلاد

تعلمت ألف باء التشبث صارعت من أجل فهم معنى التمسك والتعلق ، استعملت الأسنان واليدين والفكين والرجلين وحتى المخالب ، رضعت معنى إثبات الوجود مع أول قطر ماء نزلت مع قطعة الصوف المشبع بالماء والسكر ، ساعة الولادة قرأت الرفض والجحود والنكران والتخلي في عيون المحيطين إلا الجدّة.

(2)

27-11 - 2015 م ... الجمعة ... البيضاء - ليبيا

أعلم أن الورقة تنكمش ، وأن الحبر يجف يفر من محبرتي وأعلم أن أبجديتي تغيب واللغة تضيق ، التأتأة تعتلي عرش الكلام ، يرتعش الجسد ، تتساقط الذكريات الدفينة ، تهفو ، تتشظى ، تتشتت تتوه عندما يكون البوح عنه .

أجلس إلى طاولتي ، على غير أهبة أكتب ، كلمات تلتهم المسافات ، هاهو وطني يمتد أمامي ، مدنه ، شوارعه ، أزقته ، أسواقه الشعبية وزيه الأنيق.

أنا امرأة أحمل في دم ذاكرتي انتماء إلى برقة ، و انتسب من جهة النبض إلى فزان ، ولا أخرج عن جذور عروقي المدسوسة منذ القدم في طرابلس.

أينما وطئتا قلمي وسبابتي أسترد جزء من وطني الممزق على الورق لأنفث عزاً وبطولات ومجداً قديماً .

أجاهد لأكتب لأعبر إلى العمق ، أحاول استحضار مدنه من أرض موغلة في النسيان ، ليبيا لا مكان لها على خارطة الفرح الآن ، أي زمن رديء هذا ؟!

أتناول هاتفي ، أضبط إعداداته في وضع الطيران ، أنعزل عن العالم لأكتب ، أرتشف من كوب الشاي الموضوع أمامي ، أرتشف بنشوة ، أي سحر في هذا الكوب ، لا تكتمل طقوس بوحي إلا به ، أحياناً أضع كوبين بين أوراقي المتناثرة ، الأخر بنكهة النعناع ، أرتعش لمجرد وجود هذا السائل الذهبي أمامي ، أعشق احتساءه ببطء ، كل قطرة كون هائل من الكلام المدسوس الهامس سراً وسحراً .

تسترخي تلك الساحرة الأفريقية بكسل بين زر الكيبورد وسبابتي العاشقة ، تلك الأنثى الفاتنة تباغت قريحتي بسحر باذخ لا يتكرر ، يتعثر لها قلبي بين الورق ، للوهلة الأولى تمسك بتلابيب قلمي فيجر أسمها حباً ويدسّها " ليبيا " بين الكلمات فأعبر إلى النوم مثل خيال مبهم بين الحروف ، أنام بين اللام والألف الممدودة في أخر الكلمة .

ثمة أشواق شاسعة كبيرة متدثرة بأوراقي القديمة ، رحلة بوح طويلة تجر أذيال الماضي بصعوبة بالغة تنتهي إلى سنوات مضت ، كنت خلالها أكثر جدارة بصحبة القلم وبصحبة جدة يفوح من جدائلها شذى الحنين ، وكوب الشاي المعتق بالنعناع وبأشياء أخرى صغيرة كانت لي وحدي دون غيري من العالمين.

عندما تستبد بي حمى البوح أدفن رأسي في حضن جدتي العجوز

وأبكي ، أنام على ركبتيها ، وعندما تمسح على شعري الأسود المسترسل بيدها الكريمة ينهمر الكلام دون توقف ، بعد وفاتها هجرت الكتابة طويلاً ، هذا الهجران كبدني خسائر فادحة في أرواح كلماتي وأمراض لغوية لا نهاية لها.

كنت أعتقد أن الكون صغير لا يتسع لقول كل الكلام المكتظ والمنهمر دون توقف من سن قلمي الأزرق ، وأن شهوة الكتابة الهادرة في أعماقي سيل أزرق لا ينقطع ، وأن من عادة الكلمات أن تنحني وترضخ وتستسلم وتنكسر لتتشكل من جديد تحت خطوات سن قلمي الحادة.

أعوام متلاحقة مرت قبل أن أسترد أنفاسي وأستوعب فكرة موت جدتي ، أعوام كثيرة متلاحقة مرت قبل أن أتعود على الكتابة واقفة وعلى عجل و دون حضن دافئ يضم الكلام المنهمر مني دون توقف. .

ألملم أوراقي المتناثرة التي تضج بالبوح وبالخطايا ، سيرة ذاتية ، مقال مبتور وقصيدة لا تكتمل ، يعبث قلمي بالورقة ، أستغرق في النبش ، أحاول تأجيج الرواية بصهيل الروح ، أحاول كتابة شيئاً ، شرح الحكاية ، أهمس وتستمع الورقة إلى براكيني بكل الحواس ، أهمس وتتنهد أزرار الحاسوب ، تئن جدران غرفتي ،لا زالتْ بعضاً من رائحة حبري عالقة من بقية بوحي في ليلي الطويل ، أكتب وأتنفس بخور الحبر الأزرق ، أتسلل إلى بوابة الفجر

مسكونة بالعبق ، أستنشق عبير القصائد ، أشاطر الكلمات سرها، لا سبيل إلى ترشيد الكلمات عندما تتحدث عن حب كبير وشاسع ، تصبح فتاكة ، طاغية الجمال مرعبة ، تتقد ، تهدر في نقش الحنين ، شرسة في كتابة الاشتياق ، رائحة الوطن مدفونة هناك بين أوراقي المتناثرة لها عبق لحاء النخيل في فزان ، تتسرب وتنفذ عبر المسام ، تنفذ مباشرة إلى القلب ، نحن عادة لا نجيد مخاطبة الوطن تظل لغتنا قاصرة وقصائدنا ظالمة وأفكارنا تعج برائحة الجغرافية البليدة والتاريخ المكتوب بخط رديء لا يجيد كتابته إلا الجبناء من المنتصرين ، لنتبسط في الجلوس إلى الوطن ، نأوي إليه ككائن نعرفه ، نرتمي ، نجلس إلى جواره نلهج به كالدعاء ، نغتسل بكمال جماله ، نعيد مخاطبة " فزان " بلغة نخلة ، و" درنة " نكتبها بماء ياسمينة ونشكل " برقة " بأبجدية التين والزيتون ،

دعونا نشيد بيوتاً من الشعر في ليل " بنغازي " الطويل ونضيء السماء البعيدة بالقصائد التي لا تكتمل إلا عند تخوم " سرت " ، أنا لا أتخيل أن أسلب متعة السفر براً إلى طرابلس ، مرعبُ هذا التوقع يا وطني .

فجأة أشعر بالنعاس ، أتثاءب ، أندس تحت الأغطية السميكة ، أتكور وحيدة بائسة ، تتكسر نظراتي على خطوط الستائر الوردية الدقيقة وتعلق بالسقف أحدق بالتشققات ، يباغتني فجأة بأطيافه ،

يسطو علي ما أملك ، يسبر طريقاً نحو مواجعي ، يتقدم بهدوء نحو ممراتي السرية يفتح أكثر أبوابي البعيدة إغلاقاً ، يتمطى بخبث خلفي ، أحس به يتمدد ، يلتصق ، يجس ظهري ، أنامله تتسلق عمودي الفقري ، يحصي الفقرات فقرة فقرة تجوس من أسفل الظهر وتستقر عند الرقبة ، ثم يبدأ يتحرك في جميع أماكن جسدي المتعب ، أشعر وكأن يداً تمسد شعري أحس به يفككني روحاً وجسداً ثم يعيد ترتيبي ، أغمض عيني ، هو يتحسسني حقيقة لا حلماً ولا خاطراً ولا كابوساً لقد كان حاضراً بشكل قوي ، رهيب وبهي ، أحاول فهم واستيعاب ما يحدث ، عدم الفهم والغموض يخيفني ، أحتاج أن أفهم لأقرر ، أريد تفسيراً يفك رموز أستنجد بآية الكرسي ،أتمتم ، **اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ** ... لكن الآية الكريمة تتعثر في حلقي ، لا تخرج إلا مرتبكة ، متكسرة النطق ثم تموت على طرف لساني عندها أدرك أبعاد سطوته على الروح والجسد والذاكرة ، يا الله أين آية الكرسي التي حفظتها منذ الطفولة والتي كثيراً ما أرددها ؟!، عند النوم تكون حصناً منيعاً ألوذ بها ، أستمد قوتي منها دائماً ، من قرأها يكون في حفظ الله ليلاً ونهاراً هكذا تعلمنا في مدارسنا الابتدائية وهي لمن قرأها... في الفراش قبل النوم يحفظه الله لا يقربه شيطان حتى يصبح ويبعد عنه الكوابيس والأحلام المزعجة ،

أجدني أتذكر و أردد "وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا " ولكن هل أنا حقاً أريد طرده وملاحقته بآيات الله الكريمة ؟!

حقيقة لا ، يتملكني دفء وعذوبة اللحظة الفاتنة ، لستُ ملاكاً .

ورغم تحفيزي لكل طاقات ذاكرتي المتعبة لا تخرج الآية سليمة النطق لكنني أخضع لأطيافه وأخشاها ، أذعن لجبروت لحظاته ، أنكسر أمام جبروت عبثه اللذيذ بي ، أطيافه لا تتركني وشأني .

تطل والدتي ، أرمقها تدلف غرفتي ، تلقي نظرة شاردة عليّ ، ترتدي عباءة الصلاة الغامقة ، تطرح سجادتها وتشرع في صلاة طويلة ، قيام الليل والدعاء الطويل ، أتسمر ، أحاول كتم أنفاسي المتلاحقة ، أدير ظهري ناحية الحائط ، حائط غرفتي لبني اللون ، أتظاهر بالنوم العميق لكنني أغرق في نوبة بكاء صامتة ، لا تنتبه والدتي لحائط مبكاي الذي ارتسمت عليه ظلال ورموز واحتله طيف رجل باهت .

(3)

حجرات بيتنا الكبير بدأت تخوى بعد وفاة والدي ، هذا الخواء الفاجع يضايق والدتي ، يقلقها ويجعلها تكبر بسرعة ، شعور طاغ بفقدان الحماية ، حالة من عدم التوازن مع الحياة ، السكري وضغط الدم وخواء البيت والفقد أعداء يتآمرون على صحتها ، لم يعد البيت عامراً إلا بي وبكتبي وأوراقي وأجهزتي الكثيرة ، تزوج من تزوج ورحل من رحل وبقيت معها أونس وحشتها و أشاركها كل شيء ، لم يكن من السهل التكهن بمزاج وطقس أمي بعد وفاة أبي ، ستشرع في تلاوة سورة يس والدخان والواقعة والصافات ثم تنشغل بالتسبيح إلى أن تنام .

أعود لأقول هل كان يجب أن ألتقي به كي تبدأ الحكاية .. كي يبدأ أتساع المدى ، كي يبدأ الكون ، كي تبدأ رحلة تطويع القلم المتصلب شرايينه بداء الشلل والعطب ، كان يجب أن يبقى القلم هناك منكسراً عند حافة الورقة ، يجر خلفه هزيمة وطن منهوب ، يكتب عن الحروب ، يشرح تفاصيل الموت ودقائق الغياب والفقد ، كان يجب أن يظل قلماً خانعاً طائعاً لذائقة الغياب والحرمان و الغربة .

كان يجب أن يكون القلم وفياً للفواجع في شوارع طرابلس ، للموت بالمئات في بنغازي ، للتنكيل بالجثث في درنة ، كان يجب

أن تكون الورقة طائعة للخطف ، بيضاء ، والذاكرة تعج بأصوات القنابل والرصاص وعويل النساء والنازحين ممتلئة بأصوات المنفيين ظلماً ، وأبواق الحاقدين ، وأصوات طائرات غريبة تنتهك أجواء الوطن وتربك نبضات القلب

لا يمكن أن يخون الحبر حزن الأرصفة في شوارع تاورغاء وبكاء حواري سرت ولا حواجز وبوابات الأخوة الأعداء في الوطن الواحد ،

لكنه حضر ، جاء صاخباً كالموج تكسر ظله عند أعتاب نوافذ روحي المشرعة جاء هادراً لهفة وشوقاً وتوقاً ، جاء حريقاً لافحاً ، ساخنا مجنوناً ، جاء طوفاناً مشتعلاً ، عاصفاً ، جاء قدراً كاسحاً لما سبق .

وفتحتُ كل نوافذ الأنثى لديّ ، فتحتُ كل أبوابي ، وكان قلبي مشرعاً مفتوحاً عن أخره لاستقباله ، روحي كانت عطشى ، متلهفة للانصهار ، والذوبان والتلاشي ما أن تستقبل أنوثتي إشارة ساخنة منه عبر نبراته ، أو عبر رسائله حتى تقام الأعياد ، وكانت نبضات القلب ورعشات اليد ، وتردد الأنفاس واضطراب الجسد ، الكل يوقع أجمل الأحاسيس على جدار الزمن الهارب بيننا ، الكل يشعل الشموع والقناديل ، الكل يرقص ، يبتهج يغني لكنها مشاعر تأتي بسرعة جنونية وتذهب أشعر بأنها متطرفة غير آمنة .

أعود لأستدرك ، لا زمن نمطي بيننا ، لا وجود للأبعاد ولا المسافات أو المكان بيننا ، كل شيء نسبي بيننا ، الزمن والبعد والمسافة كان توغله في داخلي يذهلني ، قراءة ما أحس به بدقة تربكني ، حضور طيفه يشل مقدرتي على البوح ويشتت مقدرتي على التركيز ، كنت أشتهي معرفة كل شيء ، أشتهي عوالمه الغامضة ، طلاسمه ، أسراره ، أشاراته الخفية ، أشتهي قراءته لأفكاري ، معرفته ببواطني ، انتهاكه إسراري ، أشتهي خوفي منه ، من زلة لسان ، من كذبة بيضاء قد أتفوه بها ، من تمرد ، أو ثورة على طيفه الحنون .

تشتعل شاشة هاتفي ، يئن الجهاز المسكين برنته المعتادة ، تصلني رسائله

- هل تعلمين أستحضرك أحيانا لدرجة أتلمسك بأناملي ، يرهقني استحضار طيفك ،اخترق رياحا وسهولا ووديانا وشاطئي طويل لانصهر بروحك .

أتسمر أمام رسالته أحاول فك رموز كلماته ، تسري رعدة خفيفة في جسدي ، أرتجف ، أتمتم

- لا تخيفني ، أنت ترهبني ، أنت تذهلني ، لا أستوعب ذلك ، ما يحدث بيننا يفوق مداركي ، يفوق ما تعلمته أو قرأته ، انه أكبر من أن أستوعبه .

- أنتِ تحسين بذلك ، لا تنكري .

أجدني أعترف

- لا أنكر، وكيف أنكر إحساسي بالدفء اللذيذ والنشوة العارمة تحت سطوة أنامله .

كيف ومن أين ابدأ الحكاية ، بأية لغة أشرع في سرد حالة من العالم الأخر ، كيف أشرح سر اختزال أبعاد الزمان والمكان ، من أين لي أن أقبض على لهفة تخترق الرياح ، أو أسر همسة تقطع الصحارى ، أو أن أزج برجفة بين السطور أو رعشة شاردة تقطع شاطئ طويل لتنصهر بروحي كيف يمكن اعتقال كل ذلك وحشره بين سن القلم ووجه الورقة.

- ثمة رائحة زكية ترنحتْ في الثلث الأخير ، تسللتْ إليَّ من ثقب الليل ، تهاوتْ ،ملأتْ فضاء غرفتي ، ثم تبددتْ سريعاً ، أتمزجين العطر بالبخور سيدتي ؟!!.

متى وأين وصلك شذا روحي .. وكيف اهتديت إلى عبير أعماقي ؟

ما الذي دعاك إلى التسلل إلى مخدعي واستنشاقي بالكامل ، كيف عرفت بسر عطري ..؟ كيف قمت بنسف المسافات ، من أين لك بمفاتيح الخفاء ، ما تفسير الزمن في قواميس عشقك وما هو المكان وكيف ينصاع لك يا سيدي ؟ !!

كيف تطوي كل تلك الصحارى عابراً لاهثاً من أجل جمع ما تناثر من عطري الممتزج بأنفاسي المتساقط مع المسك وبالبخور ؟!!

أمخلوق البعد الرابع أنت .. ؟

- لا تنزعجي أحياناً أضعِ يدي اليسرى على رأسكِ مباركاً إبداعاتكِ صديقتي .

- واو .

في تلك اللحظة بالذات كنتُ أنزوي في ركن قصي من غرفتي و أكتب ، طيفه كان يجلس القرفصاء حارساً عند حافة سريري .

(4)

أحسه ، أحياناً أرغب في هذا الإحساس ، أريده ، أتلهف لحدوثه ، أستعد له ، للحظات التناغم الكاسر أتهيأ وللانصهار العارم أسعى ، أتفقد أنوثتي ، عطري ، أجتهد كي أمزج العطر بالمسك ، بالعنبر ، بالبخور .. فهل حقيقة يراني ، وهل تنعشه رائحة عطري وبخوري ؟

- فيكِ ، في ملامحكِ عذوبة صارخة .

تصلني رسائله الهاتفية ، أشتهيها وأخافها ، أخشاها وأتلهف لقراءتها ، وأشعر بحروفها تسعى حية نابضة ، تفيض ببريق خاطف ،ترصد أنفاسي.

وأقرأ بنظرة حائرة ، أقرأ أفكاري ، همساتي ، خلجات روحي ، اشتهاء ، توق ، استجداء أقرأ كل روحي في إشارات غامضة تصلني عبر هاتفي الصغير منه .

- هل أبلغوكِ أني سارق ، ساحر ، أقتنص لحظات غفوتكِ لأقبل جبينكِ وأحلق عند عودتي فرحاً ، مترنماً مزهواً .

أقرأ بنظرات حائرة حالمة .. أقرأ

- بربكِ عندما تشاهدين هدهداً يلهث عند الحافة ضمآناً ..تلك إشارة أنني أشتاق مولعاً ببوحكِ وهمسات روحكِ .

ما السر في الإشارة إلى الهدهد ...؟

أفر مذعورة ، منبهرة بالحقيقة ، مسح شامل لأفكاري ، سرقة لأحلامي ، اختلاس مروع لدقات قلبي ، انتهاك صارخ لخصوصياتي الحميمة جداً ، رصد دقيق لأنفاسي ، إحصاء فائق الدقة لرمش عيني ورعشة يدي ورجفة قلبي ، عرض فاضح لأحلامي ، إفتضاض لذاكرة مدججة ومليئة باللحظات والرموز والأسرار ، كل ذلك يصلني عبر رسائل هاتفية قصيرة .

كل ما أفكر به بيني وبين نفسي مقروء ومعروف ومفضوح بالنسبة إليه

هل أصبح عقلي وقلبي وأحلامي وأفكاري عرضة ومتاحة له ، ملكه وفي متناول يده يستمع إلى صوت جريان الدم في عروقي بكل هذه السهولة ؟

أهمس بيني وبين نفسي

- أرجوك .. أرجوك .. بربك يا ....

فتصلني رسالة هاتفية منه .

- لا تستجديني .

من يحمي خصوصياتي الفكرية

يا الهي نواياي مفضوحة ، ذهني مباح لكنني أشتهي ذلك وأرغب به وأتلهف له وأخشاه معاً

أشارة أخرى تأتيني منه ..

- بين الفينة والأخرى استنشقي عبير ورق الريحان فأن فيه سراً ملهماً وطارداً للضجر .

فأهرع لاهثة باحثة عن النبتة وعن السر ، بين رفوف خزائن أمي أبحث عن النبتة لأستنشقها وبين أروقة الشبكة العنكبوتية ومواقعها المختلفة أبحث عن السر .

لم أفهم

ما سر في الإشارة إلى نبتة الريحان ، كما لم أفهم سر الإشارة إلى الهدهد... وكذلك لم أفهم سر الإشارة إلى قصيدته " أهازيج من العالم الأخر" .... ؟

جاءتني رسالته الهاتفية

- لا تسألي كثيراً ، أنا أنفذ طاعة عمياء .

"والحب ذو العصف والريحان " صدق الله العظيم ،

كان من التقاليد السائدة عند الرومان في ذلك الزمان هو أن تضع حزمة من الريحان في يد الشخص المتوفى، حيث تقوده في رحلته

إلى العالم الأخر في سلام وأمان.

وفى المكسيك كان الريحان يستخدم لجلب الحظ، ولطرد الأعين الشريرة من أن تصيب أحد بسوء. وفى الهند يعتبر الريحان من النباتات المقدسة، نظرا لأنه يمثل النبات التي تمسكه زوجة الإله الذي يحافظ على الحياة في المعتقدات الهندية.

- داومي على شرب الريحان ، ضعيه في كوب ماء ليلاً ، ثم أشربيه فجراً

أما الهدهد فرسول محبة .

أتسلل كالمنومة أضع بضعة وريقات من الريحان في كأس ماء عند المغيب وأتركها حتى الفجر ، كنتُ أوغل في الحلم اللذيذ ، في البوح همساً ، و أجتهد في تفسير الإشارات والرموز والطلاسم ، لكنني حائرة ، أشعل كل الحرائق في القلب وأنا حائرة ، أهب كل شيء وأنا أتأرجح بين شك ويقين ، أصحح عبارتي ، أنا لا أهب بإرادتي بل كل شيء يُنتزع مني ويُنتهك عنوة ويُقرأ ويتفرج علي دواخلي العميقة ، تُنتهك الذاكرة ، ويُشرح الحلم ، وُيقرأ القلب على الملأ .

أعتقد أنني لن أنفذ وصاياه ووصفاته الطبية ، لكنني حتما أرغب بأسراره ، وأشتهي رموزه أتركه يتوغل في الدم ، يسري بين

تلافيف الروح ويتخذ جذوراً راسخة في الأعماق ، باركت حضوره في الذهن وتلذذتً بتسلله بين الضلوع .

أتفقد رسائله بنظرة حائرة ... رسائله التي تدجج عمري باللحظات المختلفة النادرة ، تحرضني بالإشارات والطلاسم وتدفع بي لخوض التجربة والإثارة ،المجازفة ، كان يجب أن أخوض التجربة وأضحي بكل شيء من أجل رواية راهنتً على كتابتها وسأكتبها .

- غالباً ما أخشى صمتكِ ، أستغرق في إبحاري وانصهاري لأنتزع ضالتي منكِ

ماذا بعد أسراري ، أفكاري ، هزائمي ، انكساراتي .. ماذا بعد أشيائي الصغيرة ..ماذا بعد الحلم والروح والذاكرة والوطن ، ماذا تريد أن تنتزع أكثر من ذلك ... ؟

(5)

فكرة الاقتراب من عالمك مذهلة جداً ، مرعبة ، مثيرة ومع ذلك أشتهي قربك مني وأتوق إلي الإحساس بك .

لا شيء ملموس ، لا صوت ، لا ظل ، لا ضوء ، لاشيء ، لكنني أحسك ، هذا الإحساس الغريب ، شعور لا يوصف ، لا يفهم ، لا يكتب ، لا يحلل ، لا يقاس ، غير خاضع لقوانين العلم والمنطق والبراهين والأدلة لكنه موجود .

سأقبض على لحظة الإحساس وأكتب بشراسة ، صدقَ العالم أم لم يصدق ، أني ألج عالمك الذي لا أعرف كيف أثبت وجوده بالبراهين ، وأدخل إلى لحظة باهرة دون زمن ، دون توقيت وأقف حيث لا مكان ، وألتقي بك في عالم لا يمكن أثبات وجوده بالبراهين والنظريات المحسوسة ، خارج نطاق الحواس حيث لا شيء مادي محسوس ، أنا على طرف الكون جهة الشرق وأنت تقف في الجهة المقابلة ، ننصهر ، نذوب ، نتلاشى دون أن نتحرك من مكاننا .

كانت تلك اللحظات بعثاً حقيقياً وتحولاً صارخاً في مسار قلمي ولغتي وأبجديتي ومنهجي القديم في الكتابة ، مثلما كانت انقلابا كبيراً في حياتي الخاصة والعامة وفي علاقاتي الحميمية .

أترك جمال روحه يغمرني ، ينعشني ،أتذوق حلاوة نبله الحار ، ألتقط بحاسة الشم تفاصيل الأصالة والأناقة الشعبية المؤثثة في أعماقه ، وتسري في جسدي قشعريرة اللذة لحظة تذكر صفاء قلبه ونقاء سريرته .

- أنتِ ساحرة ... ساحرة . اطرقي عوالم تنتظرك بأهازيجها..وشموعها

ستكتبين نصوصاً يرونها طلاسم ثم يتسابقون لفك رموزها.

ستكونين ملاذا لغرباء هذا العصر..

لا تترددي.

البداية إشارات ثم أبواب مشرعة.

البرق والرعد والغيث تتولد لديك قوى خارقة أذكري المصور الودود.

أجدني أهمس

- لا إله إلا الله .

تتسلل رسائله الهاتفية وتهطل كغيم هادر عليَّ وأتركه ينتهك مناطق غير مأهولة في حياتي ... مناطق بكر ، غير معهودة وأغوار لم تأتيني الجراءة علي اكتشافها والتطرق إليها حتى بيني وبين نفسي

، يمنحني تناغماً لا أتوقعه ، ولقاءاً حميمياً لا يخضع لقواعد الزمان النمطي المحسوب بالدقائق أو المكان المحدد بإبعاده الملموسة والمحسوسة والمحسوبة بدقة السنتيمتر أو الميل .

لا يمكن أن أعترف لأي شخص بأنني ألتقي بك في صورة مختلفة لا أعرف كيف أصفها بدقة .

- لم يكن هناك تربص من أحدنا بل هو نقش قدري بأوتار معزوفة لم ولن يتكرر..شغفا يحبو ، تجسد عشقا ينطق..وروحين انصهرتا بعد صهيل عن بعد في فضاء براحهما استجابة لنداءات شوق ناثرا أطيافه..

تنفيذا لرغبة غامضة ضحكتْ الأنثى التي تسكنني ، رقصتْ بفرح أمام كلماته واشتهتْ المزيد من إشاراته ، يخترقني بسهولة وكأنه طيف يعبر بهو روحي ، كنت أتلقى سحر حضوره ، أو كان يجتهد ليستحضر طيفاً ساحراً من حضوري ، لا أدري من منا يبادر بالتناغم والانصهار والهمس اللذيذ ، حضوره يحفز كيميائي الداخلية السرية ويجعلها تفرز الفرح والإثارة والنشوة بكميات متضاعفة تطفح على ملامح روحي وتهبني جرعة كبيرة من الأمل ومن التصالح مع الحياة ، جرعة دوائية كبيرة من التوازن ، جرعة ضد الحزن واليأس والضجر والموت .

كنتُ قريبة من روح كلماته ورسائله أما قصائده التي يقوم بنشرها أو إرسالها على هيأة رسائل هاتفية فلا أملك مفاتيح طلاسمها ، كنتُ أقف عند تخوم مملكة ربانية لي وحدي ، لا يحتلها أو يغتصبها مني أحد.

على جدران معبدي ، على جدران الروح والقلب ينقش إرهاصاته الأولى ، يبدع عبادة جديدة .. يرهن كل ما يملك ، يطرز صلاة ، ينحت بوح ، يحفر انصهاره ، ويتلو دعاءه الحار يتربع فيه الكلام على عرش النزق المهيب ، يختلي بي ، يدعوني في لحظاته للاختلاء ، للتأمل والتدبر في كتاب الروح العزيز ، يستأذن القلب ليتسكع في الأماكن المظلمة لأزقتي الخلفية المعتمة و المغلقة أبداً .. جاء و كأي معبود .. لم أسمع سوى صوت ارتطام قدميه .. و صدى خطوه بقداسة على إسفلت قلبي يتردد .. مسح بيمينه غباراً و ولج ردهاته حاملاً قبساً هادئاً من نوره المقدس .. يجوس خلال أوردتي .. يقبض على حفنة من كرات الدم .. يبعثرها في الفضاء .. يفعل ذلك باستهتار .. و بقدرته يعيدها إلى سيرتها الأولى .. يتفنن في العبث بمتعة لا مثيل لها .. يقطع وريداً ليصل شرياناً .. يعزل هذا عن ذاك .. تتلبسه سورة العبث فيتشبث بجدران الأوعية الدموية ينقش وحياً .. سوراً و بعض الآيات .. يلغي و يعيد دون أن يربك مسيرة دورتي الدموية الصغرى .. أو الكبرى يدس وجهه و يتفرس بإمعان داخل منعطفات روحي ..

تقوده قدماه إلى أغوار سحيقة .. فعل الدهشة لا يفارقه خلال الرحلة .. ينبهر يقول باندهاش : ماذا صنعت يداي بعبدي ؟ و يتباهى كأي إله بمخلوقه و بهذا النزق الذي يتلوه على هيأة صلاة تهزم عنفوان الزمن .. تحطم أدواته تقيد ثوانيه .. عقاربه .. ساعاته .. كل شيء ، إثر العبادة تتجمد اللحظة و ترتدي مسوح الأبدية .. يغفل عنها تدفق الدهر لكنها لا تتبدى إلا في صورة حسناء رائعة الجمال .. أتدرون ؟!! .. في نشوة دعائه الطويل لي لحظة تجمد اللحظة عند أعتاب معبدي فيما تنقش يداه بلغة قلبه صلاته الجديدة يكتشف شيئاً هاماً و خطيراً يزعجه و يبطل مفعول السحر في القبض على تلابيب الزمن لحظة العبادة .. أتدرون ما هو ؟!! ... إشارات سرية لعبادة قديمة .. بائدة لكنها منحوتة بعمق.

(6)

يفاجئني أزيز هاتفي المتقطع معلناً وصول رسالة منك ، بسبابة مرتعشة ومتوجسة أفتح الرسالة الإلكترونية ، تنهمر الكلمات ، توقظ بعمقها غفوتي ، أتأملها ، اقرأها بضبابية النعاس تارة ، وبوضوح الصحو تارة أخرى .

- الشهر الماضي كنا خمسة أشخاص بالمكتب ، دخلتْ أنثى ، كانتْ بارعة الجمال ، قالت لي : هل رأيتني من قبل .. أأنت شاعر ..؟ قام بريق عينيها بتهشيم أشياء بداخلي ، ضربتْ بأطراف أصابعها علي يدي ، نطقت ، قالتْ . هذا اسمي ثم توارتْ ، كان لها صوتاً يشبه صوتك ، وملامح تقترب كثيراً من ملامحك انه أسمكِ الذي نطقتْ به .

ألا تتأني في انتقاء عبارات الذهول والدهشة ، لماذا لا تكون رحيماً في غرابة أطوارك ، وفي بث رسائل وإشارات صعبة القراءة ، تلك الكلمات ما هي إلا طلاسم وألغاز غامضة ومبهمة تأتيني منك في هيأة رسائل .

لم تكن رسائل كانت فخاً أنيقاً مزخرفاً بإسرار الكلمات الأكثر ضراوة وغرابة ، تضعني في مأزق بين اللغة وبينك وبين حقيقة أحاول تجاهلها ، رسائلك تجعلني خرساء ، فأنا لم أغادر مدينتي منذ مدة طويلة .

بضعة ثوان مضتْ ثم هطلتْ رسالة أخرى .

- ما يفصل بين الهوس والحدس شعرة ، لا تسألي كثيراً أنا أنفذ طاعة عمياء .

كل شيء يدفعني لاتخاذ قرار ما ، شيء من الشجاعة للفرار من وجه الآخر أو السفر للتثبت من الحقيقة ولو كانت قاسية .

لي يد قادرة على وضع علامة " قف " ، قادرة على التلويح بالرحيل ، قادرة على ضغط زر " توقف " ، بالإمكان الإنعتاق بضغطة زر وقفل الهاتف ، تحطيم خط الهاتف وشراء خط جديد وتنتهي هذه القصة الغريبة .

أنا لم أغادر مدينتي منذ مدة طويلة فكيف ثبت تواجدي في مكتبه الشهر الماضي ، كيف وأنا من شرق البلاد وهو من غربه ، كيف أقطع مسافة تزيد عن الألف كيلو متر في أقل من ثانية ، كيف أتجاوز غول المسافة وأقطع أناقة الزمن المتأني في سيره ، هكذا وببساطة انتقلتُ من مكان إلى أخر وعدت في لمح البصر دون حساب للمكان أو الزمان ودون حتى أن أشعر ، ما هذه القدرة الفائقة على الاختراق ..؟ ثم ما هي حقيقة المكان النمطي والزمن المقدر بالثواني والدقائق ؟ هل حسابات الوقت والمسافة دقيقة لنا نحنُ البشر ، أم حسبنا كل شيء وفق فكرنا المحدود ونظرتنا الضيقة للأشياء ..؟

هل يمكن مسح مسافة ألف كيلومتر أو يزيد في أقل من طرفة عين والعودة ثم الجلوس دون أن تتحرك شعرة من رأسي ؟

هل مارست لعبة الخروج الوهمي من الجسد بعد استرخاء ودون وعي مني ودخلتُ مكتبك في حالة غريبة لا أفقهها وتتفوق على مداركي ، ليست لديّ موهبة التواجد في مكانين في نفس الوقت ولم اقرأ عنها سوى في روايات الإثارة والرعب ؟.

ليست لدَّي خوارق .

لا أحد يعينني على صنع القرار الحاسم ، لا أحد يفسر لي سري ، أرتعش أمام إشاراته وطرف اللسان مرصع بالاحتمالات والفكر مزدان بالشك والقلق والأسئلة المستعصية الكثيرة مليئة بالحيرة والشك ورسائله الغامضة لا تنقطع .

بدأ يتهيأ لي الإحساس بجسم يجلس ملاصقاً لي من الجهة اليسرى ، خيّل إلى أنه جنبي تماماً وأحياناً خلفي .. هل هي رؤى ؟

أشعر به يتحرك ويجثم على كامل جســدي ، هنا فقط أحسست بحجم مجازفتي ، أحسستُ بمدى الخطر الذي يتربص بي نتيجة تهوري ، هنا فقط أحسستُ بالفجيعة ، هل كان يجب أن أضحي بكل شيء من أجل رواية راهنت على كتابتها وهل سأكتبها ؟

هنا لمعت شاشة الهاتف بوميض وأخذ في إصدار أزيزه المتقطع معلناً عن وصول رسالة هاتفية .

كنتُ أنظر في رعب إلى الرسالة التي تنتظر أن أفضها لأدرك سرها

- قسماً بعالم لم تعتاديه سيكون ليلك شغفاً وشغفاً من وحي أطيافي وسترين.. أنا معكِ الآن !!

أطياف ..؟ .. معي .. ؟ ما معنى ذلك ..؟

طيف يعادل شبح ، خيال ، وهم ، حلم ، وسوسة .

هذا الإحساس به ، تحركه قربي أقلق يقيني ، وحكاية الأطياف زعزعتْ ثقتي في بهاء الإثارة ، سلبت مني روح المغامرة ، قضت على عنصر النشوة في الحكاية ، هاهو قربي ، معي ، يسيطر علي ، يتحسس أشيائي يحسني بأنامله ، يحتويني رغم الألف كيلومتر التي تفصلنا في الحقيقة .

فهل سأمضي إلى النهاية في كتابة روايتي وقربه أصبح أكثر قسوة أكثر حدة ؟

أشعر بأن إرادتي تتخلى عني ، يتسرب كل شيء من بين أناملي ، أُستلب ببطء غصباً عني ، أُنتزع من عالمي ، لا أملك الحق في أفكاري ، لا أملك السيطرة على ذاكرتي وقلبي ، حتى جسدي بات

تحت سيطرته التامة ، حقوق ملكيتي لذاتي سُحبت مني بالكامل قهراً و قسراً ، أنا لا أملك شيء...أنا لا شيء أنا مجرد ظل ، ظل بدأت تسكنه الأطياف .

اهتز الهاتف الذي وضعته في وضع الصامت من خلال إعداداته

- بربكِ هل تحسين بأن طيفاً مجنحاً يلازمكِ هامساً أقدسكِ.

لم أصل إلى مرحلة سماع همس وهمهمة الأطياف بعد ، مجرد التفكير في سماع رطانة الأطياف يرعبني ، يزلزل كياني ، يكسرني .

يا ألهي أشعر به يحاصرني ، يضع يده فوق كتفي ، يتخلل شعري ، يتشرب أنفاسي ، يقف عند أطراف سريري ، يندس معي ، يتنسم عطري ، بخوري ، مسك أطرافي ، لكني لا أدركه ، يتبدد مع أقل حركة تصدر عني فهل سأقضي بقية عمري أتحرك مثل بندول ساعة حائطية ؟ .

- كنتُ أرى نفسي سيداً وسلطاناً لكن في لحظة حضور طيفكِ أجد نفسي عبداً ناسكاً متعبداً أطمح سمو عفوكِ ، أمطريني عشقاً سيدتي .

لم تضحك الأنثى التي تسكنني ، ولم ترقص بفرح وخفة أمام كلماته ، لكنها أدركت متأخرة أنها في خطر ، لقد أصبحتْ روح

عاشقة صفراء ذابلة ، تنظر إلى كلماته بخواء فاجع ، بعد أن كانت ترقص وتطير من الفرح لمجرد وصول رسالة ، أصبحتْ تخاف الأزيز الذي يعلن عن وصول رسالة .

(7)

كان الأمر في البداية مجرد مغامرة ، تجربة مثيرة واكتشافاً لعوالم جديدة ، تحدياً للذات ، انتصاراً ساحقاً للخيال ، مُحفزاً شاسعاً للدهشة ، تفجيراً ساحقاً للأسئلة وعلامات الاستفهام ، تحريكاً عجيباً للنشوة والانتشاء من أجل كتابة نص مختلف ورواية غير معهودة ، جميلة مختلفة تماماً عن كل ما كتبتُ .

أغرتني طلاسمه ما ورائياته ، أسرتني أسراره ، أثارتني رسائله ، استهوتني كلماتي ، أغوتني أطيافه فارتعبتُ .

وجدتُ نفسي أنحدر من علو شاهق ولا سبيل إلى الرجوع ، كان الأمر مجرد مجازفة ، طيفاً يحتل حائط غرفتي ، رقما غريباً يطارد شاشة نقالي ، رقماً يتصدر شاشة هاتفي ، رقماً محلياً يرن ليلاً تحت وسادتي وصوتاً رجالياً يتلو قصيدة لم أتبين منها سوى عنوانها المثير " الأطياف الناطقة " ، وجدت نفسي أستمع إلى قصيدته وكأن صوته كأنه كان ينبثق من داخلي من مكانٍ ما عميق وغائر في الروح ، كان شعوراً لذيذاً أن أستمع إلى صوت تنفسه لحظة التوقف عند نهاية القصيدة ، قام بتلاوة قصيدته ، تنفس بعمق قال : معكِ أبو هيمة ، ثم أقفل الخط قبل أن أسترد أنفاسي .

بدأ خيالي يسيل اشتهاء ورغبة ، كانت روحي شرهة وتواقة للمزيد من صوته ،أرتجف جسدي لبوحه لكنه رحل ، مكثتُ أحدق

إلى رقم هاتفه ببلاهة ، أحاول أن أتذكر شيئاً ، أسم ، عنوان ، موقع ، شاعر ، قصيدة ولكن هيهات ، لا شي ، لا شيء .

كان مجرد حلم .

أنكفئ على ذاتي وحيدة ، حزينة ، يائسة ومسلوبة ، مسلوبة الروح ، البوح ، الكتابة ، مسلوبة الجسد وخاوية من الداخل والخارج ، متداعية ، أنحدر ببطء شديد إلى عالمٍ سفلي وأكتب شدة انحداري أقيسها دون ضوابط ، كيف أستعيد ذاتي ؟ بأية طريقة أعود ، أرجع ، ما هو السبيل لاستعادة روحي وجسدي ، لاسترداد سكينتي ، أجدني أقفل هاتفي ، أبحث عن رقم جديد ، وسيلة جديدة للتواصل مع العادي والمألوف ، أبحث عن ذاتي لأستردها ، أسحبها من عالم اللامعقول وما وراء الغيبيات ، أجرها إلى كينونتها ، سأثقل هاتفي ولكن هل ستعتقني أطيافه .. ؟

أحس بأنني محاصرة ، رغبة قوية تدفع بي إلى فتح الهاتف من جديد ، أحس بأني أكثر عزلة ، خائفة ووحيدة في مواجهة قوى خفية ،

لا أدري كيف ولماذا عدت ، فتحتُ نقالي ولبثتُ أنتظر رسائله ..؟

كتبتُ إلى رقمه ...

- "فسر لي أن تكون معي " .. كيف يحدث ذلك ، بربك أرجوك يا أبوهيمة وما طبيعة أطيافك ؟

- أمهليني فرصة حماية لكِ ولي.، إقرأي الآن ..الآن..سورة الأعلى من المصحف.

لم أقرأ شيئاً كنتُ أرتجف والمصحف بعيد عن متناول يديَّ ، لكنني أقوم بتخزين المصحف مسموعاً بصوت "ماهر المعيقلي" في ذاكرة نقالي ، بيد مرتعشة بحثتُ عن صورة الأعلى وشرعت في الاستماع لصوت ماهر العذب إلى أن انتهت الصورة الكريمة عندها انتفض نقالي معلناً عن وصول رسالة .

ارتعدتُ كانت الرسالة تحتوى على آخر آية من سورة الأعلى وصلت وماهر يتلوها بصوته من ذاكرة نقالي .

- إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى..صدق الله العظيم..

همستُ دون وعي

- صدق الله العظيم .

عدتُ كتبت رسالة إليه

- من هم أطيافك .. ولماذا أنا ؟

- ولماذا مريم.!؟ أقدارسيدتي ، لا تطرقي بربك أبواب المجهول لأنه معلوم الغد الواعد.

أحسستُ أنه لا مجال للمقارنة بيني وبين العذراء مريم

وتساءلت كيف أسترد ذاتي من قبضة شيء مجهول ، أن أنتزع نفسي من بينهم ، أن أعود كما كنتُ أكتب عن الحب ، عن الوطن ، لكن نداء من داخلي يحثني على الاستمرار ، على الاستجابة له " بوهيمة" وأطيافه وعوالمه المثيرة .

كانت كل رسائله تثيرني ، تستفز جرأتي ، تشاكس الأنثى في داخلي قبل أن تدويَّ كلماتها في عمق روحي .

- عرافتي كانت تقول لي : أهلي يحبونك . وأنا أقول لكِ أهلي هم أهلك ، أعبدكِ

مناطق غير مأهولة في الروح ترتادها أطيافه ، تسكنها قصائده ، تقتحمها كلماته ورسائله الهاتفية التي تباغتني بإثارة فضولي ولهفتي للمعرفة .

أكتب إن شئت رسائلك المشفرة ، ازرع طلاسمك على حافة ضلوعي ، أنقشها تحت شغاف القلب الرقيق ، انحت قصائدك في الجوف ، أكتبها ، أنثرها حولي ، ترقب رعشة أناملي ساعة حضورك ، وأرصد رجفة الروح ، أحصد زفير الأنفاس ، التقط

رذاذ عطري ، تسرب مع كل منافذي وتوغل مع الشهيق ، توغل لا أحد يوقف تمددك داخلي ، أمعن النظر في الجدران المحيطة بدهاليز ذاكرتي ، اقرأ ملامح بوحي بوضوح وأكمل فراغات الكلام بالتفاصيل ، تفرس في الخطوط الدقيقة للوجدان ، اجتهد ، ترجم بكائي ، فسر حزني ، صادر يأسي ، اصفع ضعفي وألمي ، فض أختام القلب ، احفظ مسالكي ، أكمل ثراء روحي ، اجمعني ، اجمع ما تناثر مني ، من فتات قصائدي ، لملم أطراف كلماتي ،رتب حضوري ، املأني حباً وخوفاً ، لا أحد يمنعني منك ، لا أحد يحمي تماسكي وثباتي أمام ارتفاع سقف روعتك الشاهق ، استدع أنوثتي لتمثل طائعة كاملة أمام حضورك .

- مقوماتكِ ومكنوناتكِ وقواكِ الروحية الخفية كل ذلك جعل منك قيمة روحية جالبة وفيضا وجدانياً أغوى شفافية روحي .

سددتَ بكلماتك منافذ بوحي ، كسرت كلماتي ، تبادرتْ إلى ذهني عبارة واحدة ودعاء حار واستغاثة

- يا الله .

شرعتُ في تلاوة آية الكرسي ، حاولت استعادة سكينتي ، أمني ، كنت أتمنى أن أقابل كل هذا بالاحتجاج ، بالرفض ، بإطلاق صرخة " لا " صارمة ، كبيرة ، مفزعة ، مدوية وقاطعة .

(8)

ماذا أفعل ، ها هو يقتحمني ، يشرع نوافذي للعاصفة ، يرفع ستائري و يلقي بأسراري في قبضة ريح عاتية .

ما إن انتهيتُ من تلاوة الآية الكريمة حتى كان هاتفي يرن ورسالة من تتوهج وتتصدر شاشته

- سأكره كل ما يبعدني عنكِ ، أتمنى أن تفيض أحاسيسي ونواميس أطيافي لتتجسد لكِ ، أملك القدرة على ذلك لكن حرصي عليكِ يمنعني ، أقدسكِ .

أتمنى أن تفيض أحاسيسي ونواميس أطيافي تتجسد لكِ ؟ ما معني ذلك ؟

بعضي يتشبث به بشدة وبعضي يرفضه ، كنتُ ممزقة ، متأرجحة بين الحب و اللا حب ، بين الرفض والقبول ، تضاد عجيب يتجاذبني ، وسؤال شرس ، جسور ، أطرحه وأنا أرتجف خائفة من فرط حبه ، كيف أتجاوز خط ملكيته الأحمر ..؟

كان يتسرب إلى منافذي بسلاسة لا سبيل إلى مقاومتها ، أو ردعها مهما تكاثفت رغبة رفضي ومقاومتي واحتجاجي وجبروتي ، يتسلل إلى أقصى نبض في القلب ، يندس تحت أدق العروق النافرة

في الجسد ، أصبح بدونه كائن بنصف ذاكرة ونصف قلب ونصف روح .

وأخذتْ رسائله الغامضة تنهمر بغزارة عجيبة ، تهطل ، أنام فأجدها ، أصحو فأجدها ، رسائل مشفرة وطلاسم وإشارات غريبة لم أفهم منها شيئاً ، كلمات متراصة بعضها جنب بعض ، ومع كل كلمة ، كل حرف ، كل سطر أعلم وأدرك وأحس أنني لستُ بخير .

أطيافه لا تفارقني ، تحيط بي ، تشاكسني نهاراً ، وتلتف حول سريري ليلاً تحتويني ، أتخيلهم يعبثون حولي لكنني أحسهم ، أحس كأن أحدهم معي يزاحمني ، يمتلك ليلي الطويل ، نومي متقطع وأنفاسي لاهثة وكأنني في صراع ، مع من ؟ لا أدري ، صراع لا أعرف كنهه ولا ماهيته لكنه صراع غير متوازن القوى .

- تظل روحي حرة ، طليقة ، مجنحة ، تمتص رحيقها بشفاه مطهرة ، وترسل ريحها لتكون مزمجرة .

أحاول التلعثم بآية الكرسي ، اقرأ الناس ، الفلق ، أهمل هندامي ، أترك الاستحمام لعدة أيام باقية على الوضوء ، أهمل زينتي ، عطري ، أترك البخور وأترك شعري منفوشا دون مشط فقط ليزهد أطيافه في الحضور إليَّ ولكن عبثاً .

- لكن أشياء من مكنونك الروحي تحتويني بل تسيطر على حواسي وتتجه كل حواسي بسرعة رهيبة نحوك ..حالة شبه جحوظ للعينين..وجفاف في الحلق وتزايد لنبضاتي .

بدأ يفتح أبوابي باباً باباً ويلقي بمفاتيح القفل في البحر المتوسط ، يجرني في جوف طلاسمه ثم يقفل أبوابه عليّ جيداً بل ويتعمد إتلاف المفاتيح ، يسجنني معه ، يسجنني داخل حدود لا تخترق ويقرأ خارطة كف الروح وتفاصيل الذاكرة ، ويتهجى أبجدية القلب بين الضلوع .

لم يعد بإمكاني تجاوزه ، أو تجاهل أطيافه التي تلازمني أغلب الوقت ، بتُ أتصالح معها ، أتركها تندس معي ، ترشو ساعات نومي ، تقيس درجة الدفء والبرودة في مخدعي وسخاء السواد الملتف حول جدائل شعري المسترسل ومقدار نعاسي ، تتلصص على حلمي ، تسبر أغواره ، تتفرس في تفاصيلي ، تحصي أنفاسي ورعشة يدي ، تتأمل المسافة بين الرمش والرمش ، تمسح زوائد الكحل ، تغسل أثار الحبر تمتص بلذة أثر دمع بلل سبابتي ، تستنشق ذرات المسك وهفات البخور ، وأهمس لها ، أستجديها بأن تتركني أنام عندما تكون روحي متعبة وقلبي مرهق والذاكرة ممتلئة في حالة أرق ، أو أنام وأتركها تعبث عندما أكون في حالة

صحية ونفسية جيدة أو أن تكون الذاكرة خاوية والقلب في حالة سبات .

- لا تستكيني للحظات يأساً أو كآبة قد تأسرك لأنك قيمة روحية سامية ، ما كانت روحي أن تنصهر بروحك لو ما كنتِ كذلك ، لم أراكِ تجسدت صورتك إمامي وجها وكأنه مألوف لي..وجها يكسوه الحزن والحيرة يغلب عليه البياض اعتقد أنك خمرية لكن لا ...

(9)

- أعطني رمزاً ، أعطني أبوهيمة .

أتساءل في جسارة لا تليق بي

- أبوهيمة ...؟

- نعم أي يهيم ..مجنح..أطيافه متعددة..والدي أطلق علي هذا الاسم.. عندما يزهو كان يقول لأخوتي: هذا يذكرني بجده الأول أبوهيمة.

أكتشف بأنني أمام طيف شريف من سلالة وليّ صالح ، من سلالة أشهر وأكبر سلاطين الجنوب الليبي وأنني أمام أول درجة من درجات الرقي الروحي ، فهل سيُفتح لي الباب لأكمل صعود باقي الدرجات العليا للارتقاء والسمو

لكن هاجس الرواية يزورني ولن أرتاح حتى أكتبها ، لقد أردت خوض تجربة تختلف كثيراً عن كل التجارب ، أردت كتابة فصول رواية معاشة وسأفعل ذلك بعون الله .

- أبوهيمة هو مؤسس دولة أولاد محمد الفاسي بالجنوب خاصة فزان ذات الموقع الإستراتيجي منذ 800 سنة تقريباً ، أسرته حكمت 300 سنة ،

يقال انه شريف من مدينة فاس المغربية ، ويقال انه مر بمدينة فزان متوجهاً لأداء فريضة الحج وان أهالي فزان قد ناشدوا الغريب الورع بأن يخلصهم من حكم دولة القرمانلي ، كل من يتصل نسبه بسيدي امحمد الفاسي بن عثمان بن امبارك بن عمران بن عبد الواحد فهو من هؤلاء الأشراف العمرانيين ، وهو من سلالة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

اذن هو سليل صحراء مترامية الأطراف ممتدة وحفيد تلك التخوم الشاسعة و ابن شاطئ لسراب سادر لا ينتهي .

قد لا أصدق ، قد لا أتخيل أو أتوقع أنني سأكون يوماً ما هكذا مدمنته ، أتحسس طريقاً غامضاً إلى دهاليز رسائله الهاتفية ، أطارد طلاسمه وإشاراته الغيبية ألتمس الحياة .

- أنت غريبة ، أنا عبدك لا املك معك شيئا ، أنا عبارة عن حارس أمين .

تعلقتُ بجهاز الهاتف بطريقة يصعب التخلص منها ، يصعب مقاومتها ، يصعب الشفاء منها ، جعلتني رسائله أتفوق على أنوثتي ، جعلتني أحس أني أكثر من أنثى ، بل تعديت ذلك بمراحل ، وقطعت شوطاً كبيراً في الرقي والإنعتاق و التسامي ، في التماهي والحلم إلى أبعد حد ، أضع طلاسمه ورموزه ، إشاراته كتمائم وتعاويذ تحت وسادتي وبين ثيابي وفي الحلم ثم أبدأ في حلها أضيع

في تفاصيلها المجهولة ، وبين كل طلسم وآخر سؤال أعلقه على حافة سريري دون إجابة ، وأدرك أنها إشارات لا تخضع للسؤال ، لا تخضع للبحث والتقصي وأن رموزه وأسراره مبهمة ومستثنى من كل إجابة .

لرسائله رائحة ولون ، وطعم ، انني أكاد أشم رائحة أنفاسه الممزوجة برائحة عروس البحر المتوسط " طرابلس " ، رائحة زكية تنفث من بين الكلمات ، وطعم ذرات المسك الممزوجة بغبار السرايا والشط والهاني ، أستطعم بين الكلمات وخلالها ملوحة المتوسط ، وعذوبة الأطلسي ، هذا الطعم الفريد الممتد من طرابلس أتذوقه حتى طنجة وشرقاً حتى طبرق.

- أنتِ عقلي وجنوني غفوتي وجنوني وصحوتي ..هي إشارات قسماً أظل عاجزا مذهولا أمامها ..لكن هناك مخلوقا عشقك أحبك لا يطيق فراقك..يلاحق طيفك متناغما منصهرا بروحك.

كل شيء يصدر عنه أكبر مني ، يتجاوز مداركي ، يسبق كلماتي ، يترك أبجديتي إلى الخلف دائماً ، يتركني ألهث للحاق ، لإشباع فضولي إليه ، إلى معرفته حق المعرفة ومعرفة سره .

- اعلمي أنه إن أضناني البعد سأبحر للبحث عنكِ ، أعشقكِ..من يقترن بك زوجاً سألاحقه .

أتوق إلى المعرفة ، معرفة تامة ، كاملة ، شاملة ، تشبع فضولي حول ما يحدث لي ، كيف يتسنى له أن يكون على بُعد ألف كيلومتر بالحساب البشري للمسافة وأحسه يتحرك جنبي في نفس الوقت ، أحساس طاغ بالحضور ، أتلمسه دون أن أسمعه أو أراه ، يا الله أحساس عاصف ، مدمر بحضور طيف ، هيمنة روح ، سيطرة ظل ، أحس بأنها حالة استثنائية ، لا منطقية ، مستعصية ، غير خاضعة للفهم ، أتوق إلى معرفة تجعلني لا أندم أو أشعر بالذنب على خوض هذه التجربة ، كيف أنعم بالوصول إلى مرحلة التجلي ؟ .

كنت أرغب بمعرفة تفاصيل دواخله ، دقائق روحه وتفسير خطوطه الدقيقة المرسومة فوق جبين فنجان قهوته

- **طيفي قد يدنو منكِ ، يدنو من محيطكِ تناغماً وتأملاً وتعبداً بهمساته ، لا تنزعجي منه انها أبجديات زمن أخر .**

أصبحت ممسوسة بحضوره ، راغبة بأية صورة لا حسية له مهما كانت ، شهوة روحية خالصة مكتملة اللذة ، غير ممنوعة ممنوحة بسخاء ولا مقطوعة ، بل متصلة بإصرار عجيب ، شهوة تجعلني أعلق متأرجحة بين أقصى حالة للجنون وأقصى حالة للتعقل وفي المنتصف نقطة ألتقط خلالها الأنفاس للحظات

قصيرة تكفي للدهشة والذهول والتعجب حتى معاودة التأرجح من جديد .

يستمتع في أن يجعلني فريسة للتخمينات وغنيمة سهلة للتوقعات والتأويل ، وأنا جازفت بكل شيء ورهنت روحي من أجل معرفة الحقيقة حقيقته .

-لا تسألي كثيراً ، أنا أنفذ طاعة عمياء .

كنت أكتب كثيراً عن وطني الممزق ، أفرط كثيراً في الكتابة عنه ، عن مدننا ، أبحث لاهثة عن أي فكرة تهديني لكتابة شيء جديد ، أتعلق بأطراف الكلام ، أمسك بخيوط بواطن الكلمات ، أشاكس الجمل الشهية وأسير بالمقلوب خلف المعاني ، يغريني اللامعقول ، يستفزني الغريب والمجنون من الأفكار وتستهويني المشاعر ، أطارد جملا فاحشة الثراء ، متطرفة تتغنى بجمال بنغازي ، أبعثر الحروف وأرتبها خلف قصص الجهاد في وديان برقة و فوق قمم الجبل الأخضر ، ولا أدري لماذا تبخل درنة على العالم بشذى الياسمين ؟ .

ولا أدري كيف ترهق أبجديتي نسائم درنة في الأمسيات الجميلة ، ولا كيف تبهرني مسالكك وأزقتك الضيقة وحواريك ، تتزاحم أبجديتي خلف روابيك يا درنة ، وتتأنق ، تتطهر بمياه شلالك الخالد ، وتتعطر ، تتزين بالشدة والفاصلة والسكون ، تتفرد لتبهركِ أيتها

الفاتنة المشتعلة الاخضرار والخصوبة ، أبجديتي التي ما خلقت إلا لتكتبكِ ممتلئة بالضعف والخوف وعلامات الترقيم والسؤال والحيرة والتردد والاهتزاز أمامكِ مذ سُلبتِي ،غايتي تطويع كل ذلك من أجل كتابة سطر ولو سطرا واحدا عن وطني .

عادت رسائله الملحة تقتحم خلوتي بقوة من جديد ، تُحدث ضجيجاً صاخباً وإثارة صارخة تربك روحي ، عادة أتردد كثيراً قبل أن أفتح رسائله وأحيانا أتركها لعدة ساعات أو أتركها لليوم التالي ، وعندما أشرع في قراءتها لا أفهم منها شيئاً في المرة الأولى وكأنها طلاسم تحتاج إلى فك وتركيب الحروف من جديد ولذلك أعيد قراءتها عدة مرات وفي كل مرة يتضح جزء من الرسالة إلى أن تكتمل الرؤية ، شيئاً ما أرعبني في رسالته الأخيرة والتي بعثها قبل أن نختلف بأيام ، هذه الرسالة أرعبتني جداً .

- **هل تحسين بآلام متفاوتة في ظهرك ...؟**

ظللت أرتجف لمدة طويلة بعد قراءتي لهذه الرسالة ، بدأ رأسي يدور ، غاصت الحقيقة في بئر عميقة وغاص الدمع في حلقي وأحسستُ بأنني متورطة جداً في علاقة مبهمة تزداد غموضاً وغرابة يوماً بعد يوم ، بيد مرتعشة أمسكتُ هاتفي ، فتحت رسالة جديدة ولم أقو على كتابة سوى ثلاث كلمات ، كانت سبابتي ترتعش وهي تضغط الحروف القليلة ، ورغم قلة الحروف التي كتبتها إلا

أنني وقعتُ في كثير من الأخطاء الإملائية قبل أن أقوم بإرسالها وأنا أرتجف خوفاً .

- **يا الهي..! كيف عرفتَ ذلك ؟**
- **لقد شعرت بيدي اليسرى ترتجف عندما لامست فقرات رقبتك .**

أدرك بأنني أحمل مشاعر متناقضة ، متذبذبة غير ناضجة تجاه هذه التجربة الغامضة الغريبة التي تدار في الخفاء بقيادة أطياف مجهولة تتلبسني ، لا أنكر أنني اندفعتُ بجنون ودون تعقل في خوض هذه التجربة المنفلتة من كل المقاييس ، غير الخاضعة لمكان أو زمان أو أبعاد ، لم أفكر ، لم استشر أحدا ، لم أسأل ، لم أبحث ، كنت مندفعة برغبة حارقة ، عارمة للكتابة ، كنتُ أنتظر حدوث معجزة ما ، فكرة ما ، زلازل يهز كياني ويجعلني أكتب وأكتب وأكتب دون توقف ، كنتُ أنتظر أن تطرق بابي وتنقر على ستائر نافذتي الكلمات ، تدق جرس الباب ، تقرع أبوابي الحروف ، تشاكسني المواقف ، كنت أنتظر أن تأتي الأفكار من السماء ، تتساقط بغزارة ويسر وتنهمر بشدة ، فجأة حضرت تتهادى من أقرب منفذ ، من هاتفي ، ومن هاتفي جاءت الفكرة في ثوب رسائل غامضة ، لا أنكر أنني هرعت للاستقبال ، لا أنكر أنني هرولت

للقاء ، ركضت بكل عطش العالم الصحراوي للارتواء إرواء القلب والروح والورق الأبيض الناشف المتعطش .

و احتفيت واحتفلت وفرحت بالولادة المستعصية والمتأخرة للبوح ، ومضيت في تجربتي تقودني الكلمات ، وتجر أبجديتي أذيال القلب خلفها ، وتسحب حروفي عنق الذاكرة للأمام وتروض قصائدي الروح ولا أدري بأنني أرجع القهقرى مع حروفي وكلماتي وقصائدي وأنني لا أراهن إلا علي السقوط في الهاوية .

خذلتني التجربة في بداية المشوار ، خسرتني أوراقي التي تلطخت بحبر باهت ، لعنني قلمي الجاف الذي لم يتعود على الشرب من حبر مغشوش ، فضل أن يظل جافاً محتفظاً ببقايا بريق على أن يخسر أصالته بفعل ارتواء كاذب ، خذلت أبجديتي وفقدتْ قصائدي مصداقية بوح الروح ، كان انسحاب كلماتي وبقاء قلمي عالقاً متأرجحاً بين الموت والحياة قاسياً وقاضياً علي فمرضتُ ، مرضتُ جسداً وقلباً وروحاً وذاكرة ووطناً .

(10)

غيمة من الانكسار والقهر والخذلان تمطر فوق أسمال الروح من الداخل تظللني وتهمي فوق رأسي وجسدي من الخارج ، تغمرني بالهزيمة والخيبة والإهانة ، مشاعري متضاربة ، لقد أهانتني هذه التجربة ونحتت في الأعماق آثاراً غائرة لن تمحى ، نحتتْ وسماً أبدياً طبعته في كل مكان في داخلي ، تحت الشغاف ، فوق جدران الأوردة وبين تلافيف الشرايين وفي العروق ، يملأ زوايا القلب ويفيض ، في ملامحي وخلف نبرات صوتي ، في رائحة أوراقي ودفاتري ، في مزيج المسك والعطر المتناثر بين ملابسي ، في تفاصيلي من الداخل ومن الخارج ، وسماً يصعب التخلص منه أو تجاوزه ونسيانه ، كنت أرزح تحت ثقل هائل من الشك والندم والريبة .

ارتفع صوت هاتفي معلناً عن وصول رسالة ، رأيت هاتفي يهتز بشدة ولا أدري كيف شعرت في تلك اللحظة بأنها رسالة غضب ، خيل إلى بأن الجهاز يرتجف ويصرخ ويسب ويشتم .

لم أقو على فتح الرسالة في وقتها ، تركتها تنتظر ، قوة روحية خارقة تهمس أن لا أفتح هذه الرسالة بالذات ، أن أتجاوزها ، كنتُ منهكة وموجوعة ، ولا قدرة لدي لتلقي المزيد من الوجع ، كان الوقت متأخراً ، قفلت هاتفي ونمت .

تركتُ الرسالة معلقة ... إلى أن يأتي زمن آخر لا يخيفني فيه شيء ، لا المرض ولا الخوف ، زمن لا يربكني فيه تقدم العمر ، ولا يزعجني برد ولا شتاء ، لا وطن مسلوب فيه ولا إرادة ، لا غياب فيه ولا وداع ، لا ألم ، لا كآبة ولا حزن .

تركت الرسالة معلقة .. حتى يأتي زمن لا انتظار فيه لفرح لا يأتي ولا طوابير ، لا جوع ولا عطش لا خطوات ثقيلة لحذاء ثقيل على الرصيف المقابل ، لا طائرات غريبة تخترق مجال الجو ، لا رصاص مجهول عابث في سماء الوطن ، زمن لا قهر فيه ولا خذلان ، زمن لا أرهن فيه راحتي وصحتي وعمري بين مخالب مسخ غيبي ، لا أرهن فيه قلمي من أجل رواية .

حطمت هاتفي الجوال ، كسرت خطي الهاتفي ، رميتُ حطام المكسورات في البحر وعدت أدراجي .. عدت إلى الوطن .

2016-1-17 م

(11)

2016-4-28 م

- تستمعين إليَّ وتفصلنا مئات الأميالُ أعانقكِ ولا أخش ويلات الأهوال ، وقد تلتهمني فخاخ الجبال ، سألني رفاق عالمي عنك يوماً في لحظة ما وأنا أصارع آلامي ... تتشبث بها وما الرجاء ..؟ قلتُ: قد أرحل ، ستذكرني والعشق بقاء .

وها أنا ذا أعود ، ألملم شظايا هاتفي المكسور ، أشرع أبواب التواصل عن آخرها رغم ما ينتابني من الشك والتردد حيال ما يحدث لي من غموض .

أخذتْ كلماته يتردد صداها في مسمعي .

- سألني رفاق عالمي عنك يوماً في لحظة ما وأنا أصارع آلامي .

رفاق ؟؟ عالمك ؟؟!! من هم . هل هم أعداء ؟ هل هم أصدقاء .؟

- هم أجنحتي عندما أتوق للتحليق واللقاء ، ألا تشعرين ؟ تحسين نسائمهم ، لأنهم الزاد والعون والوفاء ورب السماء ، أأنتِ تسألين ؟!! بل أنت تعلمين ، أأنتٍ من تسألين ؟!! هل تشكين ؟!!

وجدتني أستنجد بالقران الكريم وأردد:

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، ولكن ليطمئن قلبي ... صدق الله العظيم .

أحاول الفهم ، تتبع اشاراته البعيدة ، إدراك المعنى المتخفي خلف كلماته ، الاقتراب بحذر من عوالمه فأنا لستُ آمنة بما يكفي لإطلاق العنان لجنون الأنثى ، لستُ آمنة بما يكفي للاقتراب ولإطلاق سراح حواس الأنثى ، للأنثى مليون حاسة شم ، ولها مليار حاسة تذوق ، لها حواس لمس وتحسس لا تعد ولا تحصى ، لها حاسة بصر ومليون حاسة تبصر وبصيرة ، لها حاسة خفية متعلقة بنبض القلب ولها حاسة تجيش بالغضب لمجرد وسوسة الحدس ، في كل سنتيمتر من جسد الأنثى وروحها حواس لا تقبل العد أو الحساب أو التقصي .

تحولتُ إلى موقع اجتماعي ، أردتُ الحديث إليه مطولاً فالرسائل الهاتفية لا تفي بالغرض ، أردت معرفة كل شيء ، كل شيء ، أبو هيمة وفنون طيرانه ، العرافة واختراقها زنزانته في سجن القذافي ، ثم اختراقها لحجرة العناية المشددة بعد الخروج من السجن .

- علي أبو هيمة أسمي ، هكذا باركتني عرافتي بتنبؤاتها ، تأتي في زنزانتي ، أسمع طرق عصاها العنيف وصوتها الجهوري وقهقهاتها المرعبة ، قم يا علي سأهز عرش من مرغ كبرياءك

- أكمل يا زين.

- ساءت حالتي في السجن ، أوقفوا عني الدواء ، فكان نزيف دماغي .

- كم لبثت في سجن الطاغية يا زين ؟ وهل تزورك عرافتك دائما.

- لا تقولي طاغية ، هو سليل أشراف .

(12)

يروج لأساطيره ، يحثني على كتابة أطيافه الناطقة ، أأكتب تحت سيطرته وبإملاء من طيفه وهمس عفاريته وهلوستها ، أأكتب أبجديته بصيغة أنفاسي ؟؟!!

هل أكتب أبجديته وأنثر عليها من بهارات عطري وطيب ذاكرتي وأمزج الخليط بملح روحي ؟

ألهث خلف كلماته ، أطارد رسائله ، أنتظرها ، استقصي المعنى خلف عباراته ، أحاول فك رموز الكلام المفكك ، غير المترابط الذي يصلني وعبره ألتقط كل واردة ، يحاول قلبي مصادقة رسائله

ـ قصتك قصة ، فضاؤكم مسكون وأنتِ طيبة ، سأعلمكِ كيف تمسكين بالقلم ، تسألين وهو يجيب ، ثم استجلاب الإشارة والدعوة البتارة ، دعوتكِ لا تُرد ، ويدكِ اليسار وتخفيف الآلام ، من يقربك ضاع ، هم معك ، يبترون الأصابع التي تمتد إليك ، ضرباتهم موجعة قاسمة تخلف عاهات ، لديكِ هالة ، مسحة أودعها فيكِ المرحوم والدكِ.

وجدتني أتخبط في سلاسل طلاسمه رغماً عني ، ها هو يحدثني عن نفسي ، دعوتي لا تُرد ؟

يدي اليسار تخفف الآلام ؟ ووجدتني أقهقه ساخرة ، أنا نفسي لم أجرب هذه الأشياء أبداً وهي معي ولم أعلم أن لدي كرامات خاصة مثل كرامات الأولياء الصالحين والأنبياء.

توقظني رسائله في ليل أقضيه قلقة مؤرقة تحت سيطرة أطيافه وعبثهم ، غاضبة ، قاسية تارة ، وتارة طيبة ، هادئة ، حنونة ، تمسح على رأسي ويدي وكامل جسدي ، لطيفة تارة وعنيفة تارة أخرى فلا أملك الرفض أو الاحتجاج ، لا أملك إلا الطاعة والاستسلام ، توقظني رسائله فلا أملك سوى ترديد آيات من القرآن الكريم وقشعريرة باردة تسري في جسدي تحت لمسات أطيافه وهمسهم غير المفهوم ، أندس تحت لحافي السميك وهاتفي المحمول مضبوط على سورة البقرة بصوت " المعيقلي " ، ولكن هيهات ، فهل أطيافه مسلمة تستمع معي لعذوبة القران وسحر آياته وتتدبر معانيه ؟ لا أدري .

عرجنا ذات حديث على السياسة والوطن المهزوم الجريح

- يُستقبل كبطل وهو من الغلمان والليبية الحرة الشريفة تتضور جوعاً ، تُداس شرفا وكرامة وتقيم في المقابر أهذه هي برقة ؟ ، صبراً ما خفي كان أعظم والأيام حبلى بما هو أدهى ، أرى احتكاك مدمر ، وتدخلاً عربياً فاجعاً ، تقسيم ودفوف فتنة ، قرضابية ثانية ، خواء سياسي ، غباء ، أمرهم ليس بأيديهم ، والحكمة محنطة في

ثلاجة مغلقة ، عباد أصنام ، يهتفون لخليفة وفلان وعلان ، يجيدون صنع أشباه الآلهة والشتاوة والحجالة والرز باللبن هههههههههههههه ..فرسان بلا معركة كما قال النيهوم .

يعتقلني ..

يعتقلني جسداً وروحاً ، يحاصرني ، يقيد شيطان الأنثى فيَّ، يحبس طاقتي تارة وتارة يطلقها ، تارة يتركني أعبث ، أعيثُ فساداً في الورق وأكتب دون تبصر ، يخترقني يفرض عليَّ نوعاً آخر من الكتابة ، يعلمني الغوص في عمق الأشياء والخروج بكلمة واحدة لكنها ليست مجرد كلمة أنها هول من الكلام ، ارتداد للمشاعر ثم هجوم للأحاسيس ، توثب وانقضاض ثم تقهقر وانسحاق ، لا أستطيع أن أمسك بممحاة وأقوم بمحو قلبي أو استبدال ذاكرتي ، أو تغيير حياتي وفقاً لأهواء أطياف ، لا أستطيع إلغاء ذاتي أو أبجديتي ، لا أملك مفاتيح شفافية روحي ولا أملك شفرة لقراءة صفاء سريرتي أو نقاء قلبي ، لا يمكن أن أكون تابعا أو أن أكون متبوعا فلماذا دون استئذان مني يخترق جسدي ويحرك مشاعري ، ويزرع فسائل العشق بين مفاصلي ..؟!!

يكاد يشبعني بأبجديته ، يطوقني ، يطغى ، يتطاول ، يتوسع في ، يلغي كينونتي ويجعلني ظلاً ، مجرد ظلاً باهتاً تابعاً له .

- أعشقكِ لأنكِ نبضي وظلي ، جوهركِ هو الذي يثير اهتمامي .

حالة استلاب تغمرني بطمأنينة كاذبة ، تضغط عليَّ أطيافه حتى الاختناق ، تجعلني في حالة تثاؤب ، خمول وكسل ونوم ، نعاس مستمر واستسلام وأنا ..

- أنفذ طاعة عمياء .

و

أجاهد لإستعادتي .

(13)

على شفير أنفاس أطيافه أترنح ، انتشى ، أتلاشى أرمق والدتي من بعيد واستحضر في ذاكرتي كلمات من القران الكريم وأطيافه لا تتوقف عن العبث اللذيذ بي ، تحت سيطرتها أجد نفسي عاجزة ، أمام شراسة عشقها أنهار ، أشعر بالضياع والانسحاق ، لكنني أرغب بالمزيد من الانصهار ولو قادني هذا إلى هاوية بلا قرار.

أشعر أحياناً بأنني لم أعد نقية طاهرة بريئة كما كنتُ ، وأنني متسخة القلب والروح والجسد بالضلالة وأنني ممزقة بين رغبة ولهفة ، أتأرجح بين متعتين ، أتضور جوعاً للحب حتى الموت ، أحن إلى هذا الأتساع الشاسع للأحاسيس ، هذا التوغل في الجسد والروح كما أتوق إلى براءتي ، فطرتي ، أتعطش إلى نقاء روحي ، إلى سذاجتي وغفلتي ، أرمق والدتي وهي تحتضن المصحف الشريف فأغبطها ، وهي تقرأ " البقرة " فتتعطش روحي إلى التحرر من السيطرة اللذيذة ، وأتأوه تحت سيطرة صوت والدتي وسيطرة أطيافه وشراسة الانصهار واستحالة الارتواء .

- أتصدقين أن لديك سطوة وسلطة روحية علي أحترمها وأخشاها .

وجدتني أتأمل رسالته التي لم أكتشف وصولها الليلي إلا في الصباح ، ويعلم الله كم أخشى رسائله الهاتفية وأخاف رنة هاتفي بها .

- إطلالتكِ اختزال لكل النساء ، الآن ، الآن ضعي أذنكِ على قلبي وأنصتي إلى صهيل روحي .

بدأت وكأن صهيله يجتاحني ، يتدفق ويغمرني ، يملأ السمع والبصر وكل خلية حية في جسدي المرهق ، وأنا أتحول إلى امرأة أخرى خانعة ، مستسلمة لنبضة قلب بُعدها أكثر من ألف ميل مقدراً في حساب هؤلاء البشر .

- سأزوركِ ليلاً .

يتجاسر ، يداهمني ، ينهال عليَّ ، يقترب ، يغتالني ، يفاجئ ليلي بالخطيئة ، يفك شفرات أثقاله السوداء بالجرأة ، يغذي شرفات بيتي بالحضور ، يطرق أبوابه الكثيرة بالرغبة ، يتوزع باباً باباً ويزرع عند عتبة كل باب طيفاً حارساً عاشقاً جريئاً ويدخل .

كيف استعد لهذا الليل الطويل ؟

كيف أتهيأ لحب يختصر مسافة الألف ميل في ليلة ويشق غبار المساء باللهفة ، بالرعشة ، يجس أنفاسي ويحصي موضع أسرار جسدي و روحي ، يملأ جراره من ينابيع روحي ووهجي ، تحت

ظلال جسدي يقيم عيداً مقدساً للهفة ، يتعثر بعطري ، يتنهد فترتعش نداوة المساء ، ضبابية تغشى بصري ، أرتعش ، ويترجل عند الفجر عائداً .

- استأذنك اقبل جبينك كعادتي دائما ، أسمع همهمة وتراتيل ، أغادرك .

أعود إلى نقطة البداية ، ما معنى أن يكون معي في غرفتي بالبيضاء دون أن يغادر طرابلس ..؟!!

هل يمكن مسح مسافة ألف كيلومتر أو يزيد في أقل من طرفة عين والعودة ثم الجلوس دون أن تتحرك شعرة من الرأس ؟

أصحو ، أتحصن في غرفتي ، أمكث متوحدة في فراشي مدة طويلة من الصباح ، أقفز على صوت والدتي وهي تصلي صلاة الضحى .

توفرت لديَّ فرصة الإطلاع على منظومة شركة الاتصالات العاملة في بلدي ، فأنا مهندسة كمبيوتر وهذه الأمور التقنية أفهمها ، هاجس خبيث وسوس لي ، أردت أن أقتفي أثرك ، أن أستل حقيقتك ، أكتشف هويتك ، هل أنت أنسي ..؟ أم أنت من سلاطين العالم الأخر كما قلت لي ذات مرة ؟!!

بيدين مرتعشتين قمتُ بتشغيل المنظومة البائسة ، ونبضة زائدة من الفضول ، ورغبة صارخة وأمنية أن أجد كل البيانات غير صحيحة ، كنت أتمنى أن أجد نفسي أمام بيانات خاطئة ، كتبتُ رقمك الهاتفي في خانة البحث وأنا أرتعش ، كتبت رقمك وأنا مثقلة بنبيذ التشفي ، أنفاسي تتلاحق متقطعة ، كتبت الرقم ثم ضغطتُ زر البحث ، أغمضت عيناي ، رجفة غريبة اجتاحت كل خلية في جسدي قبل أن أفتح عيناي على الحقيقة ،

وفتحتُ ، صوبت نظري في شراسة

لم تكن بياناتك الشخصية سوى حقيقة ناصعة تصرخ بالصدق وبالوضوح وباليقين لا توجد أي بيانات .

أردت أن أتعرف على هويتك ، حقيقتك ، لكن رسالة قاطعة وصلتني .

- آه أميرتي لا تقتفي بقايا أثاري أراكِ تنشدين إماطة بعضا من خفايا إبحاري.

ثم أتصل بي هاتفياً وبدأ في تلاوة أحدى قصائده الغامضة .

لم أفهم شيئاً لكن دفئاً لذيذاً بدأ يتسلل ببطء إلى صدري ويغمرني ، مقاومتي تتداعى ، كأنه العشق بدأ يتسلل إلى مكامني ويفتك بمتاهاتي الواسعة ، ويدخلني إلى جذوة الابتلاء والفتنة والبهاء

المرتفع إلى حد الرضى والقبول والتصالح التام مع الذات والوجود كل الوجود ، همس لذيذ يصلني عبر الهاتف وصوته ينأى شيئاً فشيئاً وأنا أبتعد عن طبيعتي الإنسية ، يصمت الهاتف فأكتشف أن بطاريته قد فرغت من الشحن وأن الكهرباء مقطوعة ولا أتذكر أخر كلمات القصيدة .

- عمن تبحثين وبداخلك اليقين..عجبا..عجبا..بما تفكرين بل توسوسين بل قد تعبثين أو يعبث غيرك سكنك سكَّنك في غفلة تقولون قدرية لو تعلمين..اعترافا ضمنيا بمراوحة بين الشك واليقين ..تفقدين أطرافك قد تجدين بقايا ولا تجحدين.

(14)

صمت يلف غرفتي ، أجلس إلى الإنترنيت أتصفح بعض المواقع ، غواية المواقع الاجتماعية تقودني نحوك ، رنة هاتفي برسالة عاشقة تدعوني إلى الدردشة معك ، ففتحت حسابي في أحد مواقع التواصل ، تلاحقت أنفاسي لمجرد التفكير في حديث طويل معك ، حرفي لم يعد يقرأ ذاتي بسهولة ، لم تعد تجري في عروق أبجديتي إلا همس أطيافك ، لغتي ممهورة بطلاسم قصائدك المبهمة ، ألتمس حرفاً من نبوءة صهيل أنفاسك إثر تناغم اللقاء المحموم في تلك الليالي الصارخة بحضورنا تحت جنح العبث اللذيذ ، ألتمسك ، وأطلبك ، أطلبك مزيداً فوق المزيد .

صمت يلف غرفتي ، لكن دوياً هائلاً من النبض يملأ عروقي ، وصخباً صارخاً ، إيقاعات وطبولا ، ذاتي تضطرب بين الضلوع ، أتدثر بك ، أحتمي بك من مهب الخواء ، خواء الوطن والروح والذاكرة والأبجدية ، فراش الليل مبسوط أمامنا ولا بوح يعتقني من فتنة اللقاء ، البرد يلف الكلمات ، لكن كوامني تنطق ، تصرخ ، تعربد ، تنبض ، تصخب ، تثير عواصف من الكلام ، من وراء قلب الصمت توغل روحي في بعثرة قصائد لذيذة لا تكتمل .

سقف غواية البوح يرتفع يقودني إليك ، وأطلق العنان لجور حضور أطيافك ، أطيافك تحيا في كلماتي ، تقتحمها ، تغزوها

وتجرها حرفاً حرفاً ، تتمتع في جلد أبجديتي بالوله والحنين ، ببعثرة الأشواق بشغف وجنون

وأنا خاشعة في محرابها كنبي يتجرع آياته وإشاراته حتى الثمالة ، أشعر بالنعاس ، بالرغبة في النوم ، أتثاءب ، تتراقص حروف " الكيبورد " أمامي ، أتأملها ، تنأى ، توغل في الضبابية والتلاشي ثم رويداً رويداً تقترب ، تتمادى في الوضوح ، تكاد تثب وثباً من الشاشة الصغيرة وتلتهم بصري ، أتقرى تقاطيع الحروف ببطء ، أجوس بنظري ، أغمض عيني ثم أفتحهما في ذهول .

- أتشعرين برغبة في النوم الآن ، تتثاءبين ..؟!!!

- أرفع عني هذا التثاؤب ، لا تعبث بحواسي ، لا تجعلني أشعر بالنعاس .

- يوجد شيء قديم في بيتكم ، أعتقد يخص المرحوم والدكِ ، يشكو من المعدة كان ؟!!

- الله يرحمه ويغفر له ويسامحه ، نعم كان يشكو من معدته قبل أن يتوفاه الأجل .

- يحن لبيته ، تشعرون به وتكتمون ، أوقدوا له الشموع ، انها أنثى ، تتردد خاصة فترة مرضه ، هناك ثلاثة حروف ، لحظة ، حرف رابع يتراقص ، واو .. أو زين ،

وجدتني أتمتم ((فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) صدق الله العظيم .

ظللت أصارع نوبات التثاؤب عدة ساعات ، وأحس به معي يتحسس يدي اليسرى ، فقرات ظهري ، جبيني ، يد حانية تمسح فوق شعري ، أشعر به يستوطنني بالكامل .

- كان والدكِ عفوي وبسيط ، يحبكِ ، هو معكِ بأطيافه .

لم اسع أبدا وراء معرفة ذلك يعلم الله

كان أبي - رحمه الله -

رجلاً فُصلت صفاته على مقاسات القلب والروح ،تورطت في عشقه حتى الثمالة ولم أدر بأن ملامحه الغالية تجوب طرقات القلب لتؤسس في قلب القلب بيتاً ، تتخطى ملامحه حدودها وتتوغل في العمق ، تتفرع داخل الروح وأن نهاية دربه وداعاً مفخخاً ومزروعاً بالحريق والأنين ،أخاً كان وحبيباً وصديقاً ورفيقاً وأكثر من أب . فيه كل شيء جميل إلا طيبة القلب فهي تفيض باذخة وعالية وكثيرة جداً إلى حد الألم وإلى حد الفزع وعدم التصديق. كنتُ أغرق في حضوره الحبيب وأبتهل إلى الله أن تقوم القيامة وأن

نموت معاً أو يمتد بنا العمر وأن نهزم المرض اللعين معاً فيما تغرق دموعي في زغب سجادتي أثناء السجود الطويل وهو يستنجد بالهواء إثر صعوبة تنفسه واختناقه في ليالي الشتاء الطويلة.

كنت أغرق في محبته والخوف عليه متوارية عنه في بكائي وكان يصمد ويبتسم في وجه الألم أمامي ليطمئنني أن كل شيء بخير ، كانت أمنياتي ودموعي وخلجات روحي تخصه هو وحده وكل أشيائه المحببة تخصني أنا وحدي ، سيجارته ، ساعة يده ، جواله ، فرشاة أسنانه ، نظاراته ، أوراقه ، علب الدواء الفارغة ، أوراق تحاليل العيادة التي كان يتردد عليها ، قصاصات الورق الصغيرة المتناثرة والمتساقطة من دفاتره ، وكنت أنام كل ليلة محملة بصوته الجهوري وكلماته الحانية ، ملمس يداه وقامته الفارهة التي تطل من زاوية ما في الحلم بعيدة ، ابتسامته الحانية ، كان يزعجني أن أر شيئاً منه أو له في متناول غيري.

لكنه ، تركني ورحل دون وداع .

على حين غفلة من سقف أمنياتي و دعائي الحار الطويل له بطول العمر ، وتشبثي واستماتتي في القبض على تلابيب اللحظات الأخيرة من تلك الليلة البائسة وقبل أن أذكره بموعد الدواء وقبل أن يبلل شفتيه برشفة ماء ، رحل باكراً دون استئذان ودون وعد باللقاء ، شيعتْ المدينة مروره الغالي ، وأنا التي تختزل كل فرح الدنيا في

وضع يدي في يده الكريمة والتشبث بها لحظة الصعود ولحظة الهبوط والحلم يراودني في قهر المستحيل.

بين السجدة والسجدة رحل ، رأيته يضمحل ، رائحة الموت غيبت حكمة صمته عن المرض بعيداً عني ، فلماذا اعتصمت بالصمت كالدراويش ، كالحكماء واعتزلت كل المشافي ولم تحفل بهمسات الأطباء ولا بقوارير الدواء المتزاحمة حول مضجعك

، ألا تدري أن للحكماء نوراً لا يودع البشر ، يموتون ، ينسحبون ، يعرجون ، تهفو أرواحهم ، تتلاشى لتبعث من جديد وتتولد تتنزل كزخة مطر بين الركعة الأولى والسلام الأخير من صلاة اشتعال كل فجر ؟!!

هل هناك رحيل أكثر بشاعة من هذا الرحيل ... ؟ رحلت وفي فمي الكثير من البوح العالق يا أبي .. فكيف أرسله إليك ؟ وهاتفك أرقامه تضيء ولا من مجيب ، مازال في جعبتي الكثير من الكلام ومن الحنين ومن تراب الوطن عالقاً بأهداب قلمي ، مازالتْ هناك أشياء معلقة بين سن قلمي والورقة ، هذا الغياب ، قاسياً ،عاتياً ، قاسماً ، واسعاً ، كبيراً عليَّ.

(15)

ازددتُ شقاء بأطيافه التي تلاحقني ، فكلما توغلتْ في عمقي أكثر كلما ازدادتْ رغبتي إلى طلب المزيد ، المزيد من التوحد معها وفيها ، وكلما توغلت روحي في معرفتها كلما زاد توقي إلى معرفة سرها الغامض وعبثاً أسعى إلى امتلاك ما لا سبيل إلى امتلاكه .

أسئلة كثيرة تتقاتل سرا في داخلي ، أقول في ذات نفسي كلنا أطياف ولكن هناك من يعيش حبيس جسده ، يلوذ به ، يحتمي أو يسجن داخله ، وهناك من يعتق ويتحرر من جسده ليتحد بضوء أو يعلق في أقدام غبار أو يعتلي ظهر موجه أو يلتحق بركب عاصفة هوجاء غاضبة .

أشعر بها لحظة كتابة هذه السطور ، تنقض عليّ ، تقتحمني بالكامل ، قاسية ، متسلطة ، تكاد تجهر بشهوتها ، وأكاد أعلن فتنتي بها ، لكنني أقاومها وأتلعثم بآية الكرسي ، أفقد السيطرة على مخارج الحروف ، أنسى معظم كلمات الآية الكريمة وأتذكرها وفقاً لمزاج الأطياف الغامضة .

- علي أبو هيمة ما حقيقتك ..؟

- قولي لهم كان مؤمناً يخشى الله..يختم كل شهر مرة ويحس بأميته وضحالته أمام خالقه ، يمازج الأعاصير..والرعد والبرق ..تؤنسه العواصف الهوجاء ، معزوفته ، النسور وهي في

مواقعها تلوح له ، تخاطبه ، الصقور تتودد له و النورس والهدهد يدنو منه ، الأفاعي تستكين والزواحف يسمع تسبيحها ، ما رأيك في رحلة ليلية تحلقين فيها لتعلمي مما أعاني ..؟!!

- أخاف المجازفة أرجوك .

- ستستمعين إلى أصوات الرياح وهدير الأمواج وعواء الكلاب والذئاب ومواء القطط. ، أبجدية ما ورائيين .

لجأتُ إلى غرفتي تلك الليلة وأنا أعاني من صداع نصفي عنيف ، شعرتُ به عند انتصاف الليل ، لم أنم إلا عند الفجر ، تمسكت بآية الكرسي والمعوذات ، أحاول تذكر كل الآيات التي كنت أحفظها منذ الطفولة عن ظهر قلب ، صحوت مرهقة ، جسدي مغمور بالعرق ، لقد استمر الصداع اللعين لليوم التالي ، في الصباح وجدتُ رسالة خاصة منه في موقع التواصل الاجتماعي أذهلتني .

- أعلم أنك مرهقة..وتقبعين عند مربع الصفر المقيت .هوني عليك..أعتقد ليلتك كانت سكونا وتأملا ناعما رغم الانكسارات بين الفينة والأخرى..لكنكِ قمتِ بحسم الأمر بذكر الله الجبار الواحد القهار..

صوت دون جسد ، كائن أحسه في كل مكان حولي ولا أراه ، تواصل حميمي وتناغم والتحام دون لقاء مادي ملموس ، أحسه

يمخر نوافذي ويشرع كل أبوابي بشهية لا مثيل لها ، أغرق في متاهاته ، وإشاراته ، أنفصل عن عالمي و أتوحد فيه حد الألم الذي لا يطاق ، يغرقني في دوامات شهوة أبدية لا أخرج منها إلا على حافة هوة عميقة ، بعدها يفتك بي الصداع اللعين ، أي عشق هذا ؟.

- تغلي نبات الخزامى بالماء وتوضع في شاش عند وسط الرأس ، لا تخافي عمري ، أبتعدي عن التوتر ، ضعي رجلك في ماء بارد ، أحسستُ بكِ ، أحبك .

تعودت على رسائله ، ها هو يمتلك كل مفاتيح أسراري ، يعلم ما يؤلمني ، يجس حرارة جسدي ، ويخبرني بكل شيء عن نفسي ، أصبحتُ نافذة مفتوحة له ولأطيافه العاشقة ، يقرأ ويتفرس في ملامح جسدي وروحي ثم تأتي رسائله الهاتفية بتفاصيل أحاسيسي الخفية ، تأتي رسائله تضج بالغموض ، تأتي مثل القنابل الصغيرة الموقوتة تارة أو مثل الفقاقيع الملونة محاطة بالدهشة تارة أخرى ، تمنحني الراحة والطمأنينة تارة و تثيرني وتضعني في أفق الذهول والانبهار تارة أخرى .

- ما الذي عكر صفو مزاجكِ ، لا تجعلي من الصغائر كبائر ، الأفضل أن تحسني حكمة السمع بصمت حتى لا ينجح الآخر ، انها إشارة ، يحاولون استفزازكِ.

حروف رسائله كانت كأنها تأتيني من مكان ما ، مكان بعيد جداً موغل في السحر واللذة والدهشة الباذخة ، كانت من زمن هلامي يصعب تحديد تاريخه بالحسابات البشرية الضيقة ، لا يمكن التكهن به هل كان ماضياً أم حاضراً أو مستقبلاً ؟!!.

تأتي حروفه حاملة سحرا وغموضا ويقينا ، تأتي لتلقي بي بين أحضان أسرار عوالمه .

- لا تطارحي القدر..مفاجأته القادمة أكثر نشوة ورونق .. الإفراط غير مجدي في كل الأمور ، عندما ترتطمين بضبابية توقفي عن الكتابة حتى تتوارى بسلام ، جان .. إنسان ماذا يجمعهما ؟ .

سكتت

- نار وطين ،

- أراك في لقاء تبحرين تشرحين ماهية حرفكِ بلغة أهل الأطياف وستبدعين بشهادة ودهشة المذهولين..ومن يقول هل هو تنزيل رب العالمين ؟ رددي وقولي لست من الغاويين بل إبداع المتدبرين ، أرجوكِ اليوم بعد صلاة العشاء اقرأي سورة فصلت ولنر، لتطمئني وفيها اشارة ، (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) تدبريها جيداً عمري .

أحسستُ بأنني أبحر في ضفة أخرى لا أعرفها ، لست محصنة ضد المس والفوضى والسحر والخطف و العبث والجنون .

عادت رسائله تهطل بشدة

- قل أعوذ برب الناس ، ملك الناسِ ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، ...... صدق الله العظيم .

- صدق الله العظيم .

لم أنم بعد صلاة العشاء ، ولم أقرأ شيئاً ، أنا طين وأنت نار ، لا بد أن نفترق .

(16)

كتبتُ القصة القصيرة في طفولتي ثم كانت تجربتي الطويلة في كتابة النص النثري والخاطرة ، كتبتُ المقالة ، لكنني في حاجة إلى مصادفة مثيرة وتجربة غنية وناضجة ، تجربة غير متوقعة لكتابة نص روائي مختلف ، يدهشني ويربك حسابات العقل والمنطق ، نص أؤمن به ، يوقظني من غفوتي ، يخرج من بين أنقاض روحي ، يعلن عن نفسه ، يفقدني توازني ، يغريني ثم يجذبني لكتابته ، نص أنا المعنية بكل كلمة فيه ، يجعلني طريحة الافتراضات والاحتمالات ، يسمح لي بالتنفس والرقص والغناء والجهر بالبوح اللذيذ ، رامياً عرض الحائط بالعادي والطبيعي والمألوف من أبجديات هذا العصر وكل العصور ، يشحن الجمل بالبارود ويلقي بالحروف المتعانقة العاشقة في أتون نار عشق حامية لا ترحم .

- ثمة أشياء من مكنونكِ الروحي تحتويني بل تسيطر على حواسي وتتجه بسرعة رهيبة نحوك ..حالة شبه جحوظ للعينين..وجفاف في الحلق وتزايد نبضاتي .

اقرأ هذيان روحي أمام وجوم نوافذ الوطن ، وصمت أبوابه ، تهجى جنوني في شوارع اليتم والفقد والتهجير ، ابحث في أوراقي عن آية الإخلاص والنور ، آوني من فتك الهواجس والطرقات العنيفة لنبضات القلب وهدير العروق النافرة وأشلاء الأحبة ، قل لي ما الذي يهدئ النفس ؟ لا تدع بصرك يضعف في الغربة ولا

تسمح لقلبك بالعشق بعيداً عن الوطن ، لا تدع جدران روحك تتآكل هناك ، أحتفظ بكل شيء كما كان ، شوارع بنغازي ، دفء ليالي العاصمة ، رائحة ترفاس الجنوب ، حتى سراب الصحراء دعه يتلألأ تحت هامات النخيل في قلب الذاكرة ، ودع البصر يغتسل بلمعانه في الغياب ففيه شفاء واحتفال وسلوى ، دع قلبك يصر على قراءتي كأورادك كل مساء وانتصب أمام أبواب قريتك كل ليلة ، انتصب سراباً أو وهماً أو مارداً من الجن، لا يهم ، مادامت حنجرتي مليئة بالأشواك والخناجر ومادام الصوت عاجزاً عن الحضور .

لا أدري إن كانت هذه التجربة مصدراً للسعادة أم الألم ، ولأول مرة منذ سنة كاملة تحدثتُ إلى صديقتي فاطمة في الأمر ، بحثُ لها بكل شيء ولكن باختصار شديد ، ظلت صديقتي هادئة ، كانت تنظر إلى بعينين غارقتين في الدهشة والذهول ، ظننت أني أسرد على مسامعها قصة من نسج خيالي ، لكنها تجرأت وقالت .

- يجب أن تذهبي إلى طبيب نفساني ، قد ....

قاطعتها ، لقد آلمتني كلماتها إلى أقصى حد ، شعرت أن صديقة العمر لم تفهمني ، أنا فقط أردت أن أشكو لها جرحي وحزني وحيرتي وعدم فهمي لما يحدث معي فهماً علمياً دقيقاً ، أردت أن أبث لها قلقاً ساورني ، وتيهاً لم استطع التحكم فيه ، أردت أن

تشاركني النقاش حول هذه التجربة المثيرة التي سكنتني و تجاوزت مداركي ، تفسر لي ماهيتها أو تصمت أمامها عاجزة مثلي .

- سأغفر لكِ هذه الزلة ولكنني إذ رويتُ لكِ ما حدث لم أطلب منكِ حلاً أو تفسيراً لما يحدث ، لنغلق هذا الموضوع إلى الأبد .

واتفقنا على غلق الموضوع إلى الأبد وكأن شيئاً لم يكن ، ذهبتُ وتركتُ كلماتها معلقة في الهواء خلفي .

بدأت وحيدة في البحث عن تفسير لما يحدث معي ، كنت كالمجنونة أبحث ، عن تفسير أن تعشق شيئا تجهله ، ما معنى أن تجد أحاسيس الحب والحنين والاشتياق تباغتك و تغمرك فجأة دون سابق إنذار وتجذبك نحوه ، اشتهاء وانجذاب للتواصل معه ، لا تملك مقاومة الاتصال به أو حق رفض الاستمتاع بسماع قهقهاته عندما يرد على الهاتف في الطرف الأخر ، تأخذك الرنة الطرابلسية فتبحر في لجة من البهاء والسحر والغموض ، تجعلك تحلق بعيدا ، كانت رنة مدينة طرابلس تختلف عن رنة هواتف بقية المدن في ليبيا ، تأتي رنة قصيرة ثم تتبعها رنة طويلة ، إذن لا شك ابداً أنه من سكان مدينة طرابلس ، بل قطعاً هو من سكان العاصمة ، لكن لهجته ليست طرابلسية أنها خليط متجانس من لهجة الشرق والغرب والجنوب ، عندما يتحدث لا يمكن أن تحدد له لهجة ليبية صافية ، أنا أتحدث هاتفياً معه ، إذن هو بشر في حقيقته

، ما معنى أن يكون بشراً يقطن مدينة طرابلس ويتحول إلى طيف يطوقني ليلاً ويرافقني نهاراً ، عندما يعترك مزاجي تأتيني رسائله مواسية منه ، عندما أمرض تأتي رسائله بالوصفات الطبية وبالأعشاب ، حتى عندما أتخاصم مع أمي ينتبه ويبعث رسالة محذراً .

- أمك ، ثم أمك فهي امرأة صالحة لا تجعليها تغضب منك ولا تتركيها بمفردها .

قوة تخاطر عجيبة ،

بهدوء وبطء وحذر وخوف ورغبة في المعرفة ، هكذا كانت تتنامى العلاقة بيننا ، لكنه ظل طيفاً ساحراً غامضاً ، شاهقا ، عالياً ، شرساً لا تجده ولا تحيط به مداركي ، فلماذا يحجب مداه العميق عني ؟ .

هنا تسللت حالة من التوجس والخوف والشك إلى أعماقي ، شيئاً خفياً في أعماقي يخبرني أنني في خطر ، أنني أسير في طريق لا يحمد عقباه ، كل شيء أمامي أراه خطأ ، واعترفت بيني وبين نفسي أنني أمارس الخطيئة على نحو ما ، هذا الشعور أصابني بالتوتر ، والقلق والخوف من الانجراف في التفكير في مسألة الحلال والحرام ، أهملت واجباتي اليومية ، دفتر تحضير الدروس

، تصحيح أوراق الطالبات المتراكمة ، ساعات القراءة اليومية والزيارات المختلفة ، هندامي ، كل شيء .

ما الحلال وما هو الحرام ؟ أنني بطبيعتي هشة ، ضعيفة فكيف أرده ، كيف أمنعه ؟ وهل بإمكاني إيقاف طيف يأتيني ليلاً عن العبث بي ؟

أعترف أن عالمه الغريب أثارني ، قدرته على قراءة أفكاري أدهشتني ، تنبؤه ومعرفته الدقيقة لما يحصل لي أذهلتني ، لكنني بشر أحب بشريتي ، أعشق ضعفي وإمكانياتي المحدودة ولا أرغب في القفز على طبيعتي التي خلقني الله عليها .

لذا وللمرة الثانية قررت إيقاف كل شيء ، حظرت حسابه على الموقع الاجتماعي ، حظرت رسائله وكل أرقامه الهاتفية .

لكن روايته ظلت مبتورة ، مقطوعة ، ناقصة ، حية تتنفس .

أعترف أن تجربة كتابة هذه الرواية راودتني عن كل أنواع الكتابة الأخرى ، رواية تتجاوز العادي والمألوف ، أبجديتها تتجاوز اللغة ، رواية

تتجاوزني أنا كاتبتها وتنتصر علي ، هكذا كانت البداية ، بداية الرواية .

(17)

جلستُ إلى طاولتي أقوم بسحب نسخة ورقية من روايتي بعد أن قمت بقطع علاقتي مع بطلها الفعلي قطعاً باتاً ، ها هي أوراق روايتي مبعثرة أمامي ساخنة ، ناقصة ، مبتورة هذه الرواية أقول في نفسي ، تناثرت الأوراق هنا وهناك وأنا جالسة أرتجف .

وجدتني متأكدة من انجذابي لهذه الأوراق وحبها حباً جارفا كشخص من الجنس الأخر ، وأني وهذه الأوراق نتبادل النظرات طويلاً بشغف ومحبة وأن هناك شعورا متبادلا بيني وبين هذه الصفحات المتناثرة أمامي ، ووجدتني أمسك بالصفحات ، أهيم بها ، اقبلها صفحة صفحة ، وحتى عندما أقوم لأنام ألملمها وأتركها تحت وسادتي ، يا ألهي من يعبث بمشاعري ؟

كانت ملمس كل صفحة مختلف عن ملمس أي صفحة مكتوبة على ورق أخر ، كانت رائحتها ذات عبق غريب طيب لم أعرف مثيله في حياتي ، أشعر بأن أوراقها دافئة ، نابضة ، حنونة وأنني أشعر بنشوة حقيقة صارخة عند ملامستي لأوراق هذه الراوية .

بعيون مغمضة وتيه كنت أحضن الأوراق الرائعة ، وهي تتساقط مني هنا وهناك بغنج وتنسل بدلال ، قوة هائلة كانت تدفع بمشاعري إلى حالة متطرفة من العشق ، شعرت بأن لهذه الأوراق قلب ، أوردة وشرايين ، رئة تتنفس وقامة سامقة ، لها

ملامح وعطر ، لها نبض ويدان تتشابكان بقوة وتضغطان على يدي ، كانت أسعد لحظة في حياتي هي اللحظة التي أبقى فيها بصحبة صفحات روايتي الناقصة أبحث عن شيء عميق بيني وبين كلماتها ، التي أنفسها وألتقط شذاها .

كيف يمكنني تفهم هذه الحالة التي أصابتني بعد حظر " أبو هيمة " من حياتي ؟

هاهو يتواصل معي في رواية ، تغير مفاجئ أربكني ، وقلب حياتي رأساً على عقب ، هو من خلق لي عالما حميمياً من ورق أجل هو ، صحيح انقطعت رسائله عن التدفق إلى هاتفي ، لكنه لم تنقطع أطيافه عن زيارتي ليلاً رغم تلعثمي بآية الكرسي والمعوذات .

لم أكمل الكتابة ، توقفت عند حظري له ، الكلمات استعصت علي ، لكنني كنت اقرأ وأعيد قراءة ما كتبت بشغف ومحبة ، لقد دمرتني أطيافه وعبثت بي بشكل لا يمكن أصلاحه .

ذات ليلة كنت نائمة ، فتحت عيناي بصعوبة ، نظرتُ إلى ساعة الحائط كانت تشير إلى منتصف الليل تماما ، كنت مرهقة ، تحسست طريقي في الظلام إلى المطبخ لأتناول كوباً من الماء ، جلست على طرف سريري نصف نائمة عندما خيل إلى أن الصفحة الأخيرة من أوراق الرواية ترتعش ، وأن سطحها يعلو

وينخفض ، كانت نافذة غرفتي الوحيدة محكمة الإغلاق ، الوقت صيفاً وليس ثمة نسمة هواء أو ريح ، كان السطر الأخير في الورقة لامعاً رغم العتمة الشديدة ورغم ظلام غرفتي الدامس ، ثمة كلمة وحيدة في السطر الأخير تومض وترتعش ، كانت الكلمة أنتِ ظلي

خيل إلى أن للورقة جلد يتغضن ، يصفر وأعضاء غير مألوفة وأنها تعقد مابين حاجبيها مفكرة في مسألة يصعب تحديدها ، الغريب أن ذلك لم يرعبني .

بسبابتي المرتعشة العاشقة أجدني أتحسس السطور سطراً سطراً ، قلبي ينتفض ويخفق بشدة عندما تتوقف سبابتي عند الكلمة الأخيرة ، أشعر بوخز كوخز الإبر أو الدبابيس ، الوخز آلمني بشدة ، كأن للكلمة رؤوس مدببة حادة ، قطرة دم نزلت من طرف سبابتي على وجه الورقة المتغضن ، خيل إلى أن الورقة تبتسم ، في الصباح لم أجد شيئا ، الأوراق كالمعتاد ملفوفة ومطوية وموضوعة بعناية تحت وسادتي ، نظرت إليها في شغف قبل أن أذهب إلى الحمام لأتوضأ وأغتسل وأتناول إفطاري كل صباح ، كانت تحيتي لها ليست عابرة ، ظل الوخز يؤلم سبابتي طيلة أيام متتالية .

حالة متطرفة شرسة وجدت نفسي فيها ، الغريب حالة الركود التي انتابتني بعد كتابة الفصول الأولى من الرواية ، ظل قلمي معلقاً

وأناملي متصلبة وذهني عاجزاً عن تخيل نهاية مناسبة لهذه الحالة الغريبة ، لم تنقطع أطيافه عن زيارتي ، أحياناً كنت أدخل إلى غرفتي لأتملى وجه أوراقي وأظل لفترة طويلة أقرأ وأتأمل كل حرف فيها متلذذة بملمسها الصقيل الناعم ومعجبة بطريقة صف كل حرف فيها ،الكلمات كانت تتسلى وتتمدد على الورق قابعة في انتظاري ، بعد ذلك حدث تحولاً خطيراً في حالتي الغريبة المتطرفة إذ بدأت أحس بأني لم أكتب ولا حرفاً واحداً في هذه الصفحات المتناثرة أمامي ، وأن أحداثها وجملها وكلماتها من صنع خيال كائن أخر وأبجدية لا تمت إلى نوعية النصوص التي أكتبها بصلة ، وأن هذه الكلمات لا أفهمها وكأنها طلاسم أو رموز موغلة في القدم ، بالفعل كانت كلمات الرواية تنقلب رموزاً وطلاسم وأشكالاً مبهمة تارة وتارة تعود لتصبح حروفاً مقروءة وواضحة ومعروفة ، تتغير تغيراً سريعاً مذهلاً ، كنت أتمنى أن أتمكن من قراءة هذه الرموز والأشكال والطلاسم عندما تنقلب سحنتها فجأة ، كانت تظل على سحنتها المنقلبة عدة ساعات قبل أن تعود إلى حالتها الطبيعة التي كتبتها بلغتي وأسلوبي وأبجديتي أحسست أنني أعيش حالة من حالات ما وراء الطبيعة ، حاولت التركيز أكثر في الرموز وفي الطلاسم والإشارات التي تبدوا أمامي عندما تنقلب سحنة الأوراق ، حاولت نقل بعضاً منها لأكتشف إلى أي العصور تنتمي هذه الإشارات ، ليس أمامي سوى الشبكة العنكبوتية

ومتصفح " قوقل " الشهير ، أعتقد أنها أقدم لغة مكتوبة في التاريخ البشري

- لم ينجح بحثك في إظهار أية نتائج ، هكذا قال قوقل .

(18)

- تعلمين ..؟ عندما أبحر إليك أتكبد مخاطرة عظيمة ، انفكاك ببن الروح والجسد، روحي تداعبك تشتهيك ، اكتبي عني لك الإذن .. أنا علي

- لا تقل روحا يا زين لأن الروح لا تنفك عن الجسد إلا مرتين ، مرة عندما ينام الإنسان ومرة عندما يموت ، حدثني سأقرأ ولن أقاطعك ، حدثني عن رحلة الإبحار المثيرة ،

- تعلمين أن الأرواح تتفنن في تمردها رفضا للقيود والتقنين الرخيص .

- اعرف ، لكنها لا تنفك وقرأت أن الروح لا تفنى ولا تزول .

- من أين آتيتي بهذا التفسير .. ؟

- هكذا تعلمنا .

- ثقافتكم ملوثة .

- الروح من أمر ربي هذا قرأن ، لا تغادر إلا عندما ينام الإنسان أو يموت يجب أن يتناول هذا الموضوع بحذر وفهم صحيح وينبغي التثبت مما يروى حتى لا نقع في التباس ، صحح ثقافتي إذن.

- لا.... أنت الآن تحاجّين بعناد

- لا ، أنا لا أجادلك ، فقط قلت لك ما تعلمته في مدارسنا .

- انها ثقافة رأس رؤوس..الشيخ شخبوط ..وتؤمه مخبوط

كنتُ أدور حول كلماته وجمله المبهمة القصيرة دوران محموم ، كان مضنيا متابعة و فهم ما يعنيه وراء سطوره القليلة وكلماته المبتورة ، مع كل محاولة للفهم أجدني أبتعد بعيداً في مجاهل المعنى ، ما معنى الانفكاك بين الروح والجسد ؟

وجدتني أردد " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "

كان عالم الأرواح قبل عالم الأجساد ، إلا في حق سلالة بني أدم ، خلق جسد بني أدم أولاً ثم نفخ فيه الروح ،الآن أشعر بملامسة روح علي لجسدي ، أحس بهمهمات روحه وهي تسرح مخترقة كل شيء في داخلي ، فهل روحه ألفت جسدي فاتصلت به اتصالاً أبديا وانصهرت به انصهاراً مميتاً وتوغلتْ سائبة ، ألمحها تسري ، تهبط ، تأوي إليَّ ثم تغوص بعيداً في داخلي وتحول لحظاتي إلى كتل شوق وحنين وحرقة وألم لذيذ ، فكيف تنفك الروح عن الجسد لتعانق جسداً تشتهيه ؟ ولماذا تتعلق روحك النورانية بجسدي الهش الفاني وهل هناك انفكاك وعودة بين الجسد والروح يحدث وقتما تشاء الروح أو وقتما يرغب الجسد ؟

- الذي يغير عليك عليا ، الذي ينصهر معك علي ، الشاعر الذي يتلو قصائده على مسامعك ويرسلها على هيأة رسائل هاتفية أو ينشرها على مواقع التواصل الاجتماعي هو علي .

- وأنت ؟ وأنت يا زين ماذا ..؟!!

عيناي معلقة في شاشتي أنتظر الجواب ولكن لا جواب ، أحاول هتك أسرار كلماته التي تركض أمامي تارة متوعدة وتارة حانية ، ومعرفة سر علي أو هوية زين ، ما هي هذه الذات اللطيفة ، الهامسة ، العاشقة التي تحيط بي ؟

أحد الأصدقاء نبهني إلى عدم طرح الأسئلة على زين ، قال لي أن محاولة شرح عوالمه ترهقه ، يتعب كثيراً لمجرد شرح كلمة بسيطة في هذا المجال ، مهمته يتلقى الإشارات من عالمه ، يتلقاها ويترك مهمة التفسير والفهم لكِ لذكائكِ ، ومحصلة ذكائي في هذا المجال صفر ، دراستي علمية بحتة ، وقراءاتي المتعددة مجالها الأدب والشعر والقصة ، وهذا علم ما ورائي لم يستوقفني غموضه يوماً ، قال صديقي : لا يوجد تفسير علمي دقيق لمثل هذه الظواهر الخارقة للطبيعة كأن يتواجد شخص في مكانين مختلفين وفي نفس الوقت ، وأكد أن ذلك حدث فعلاً ولكن لا يوجد تفسير دقيق أو أثبات أو برهان لمثل هذه الظواهر ، مجرد قصص

وحكايات يتناقل أطرافها الناس على مر العصور والأزمنة ، وهذه الظواهر الخارقة تحدث حتى في عصرنا هذا .

رن هاتفي المحمول رنينا متواصلاً معلنا عن وصول رسالة ، لم أخمن وأنا أرمق وميض هاتفي مضمون الرسالة التي اعتقدت اعتقادا جازما لا يقبل الشك أنها منه ، من زين ، إذ كل ما في الرسالة كان ينبئني وكل ما في جسدي كان يستجيب متلهفاً للقراءة والانصهار .

- معك روحاً ، ممسكاً بخصركِ ، كل الطقوس لنا .

لا أدري كيف أصف إحساسي به ، مشاعري عميقة ، أحساس بالتسامح والتفاهم والتصالح مع الذات ومع الآخر يخترقني ورعشة خفيفة تجتاح جسدي ، أشعر وكأن يداً حنونة تحيط بي ولا وجود مادي ملموس لهذه اليد .

- شبه الفيلسوف علي ، ال25علي ، زين

مطية..الحوادث..السجن..العذاب

المنقذ علي ، المنتقم علي ، المنقذ ينقذ زين، الذي يبحر علي، يبقى زين جثة هامدة .

رموز ، كلمات مبهمة وطلاسم .

- حليم عنده كبرياء زائفة تجسدوا له وهددوه عند أزمتي ، ارتعب..تجسد له علي، هدده.توعده

-حليم ؟

-ذهب للمشعوذين ، لم يفلحوا ، مجنون ، جن

- من حليم يا زين ؟

- أصابه الهذيان، أنت ذكية .." من انتم ؟ " هههههه .

مصادفة الجمعة الماضية ، شيخ الجمعة فسر سورة الجمعة ، وتمنيت الجمعة التي قبلها أن يتناول موضوع الروح ، بدأ يفسر ماذا في الزبور..والتوراة..والإنجيل..وكتب أخرى ، تحدث عن عذاب القبر..وعذاب الروح والجسد ، أتم خطبته وظل ينظر إليّ ، ثم ذهبت إليه مدفوعا بقوة غريبة ، شكرته ، وضعت يدي على رأسه ، قلت له طرحك جريء ولكن .... الروح لا تعذب سيدنا ، تلك روحه ، تمتم ..والله..والله ، قلت له : أيعذب الله نفسه ؟ تفرس جيدا ، قال اعذرني سيدي اجتهاد ، أشفقت عليه ، الثقافة الإسلامية مبتورة سيدتي ، السؤال من أوحى له برغبتي في سماع خطبة عن الروح ؟!

آه لو نتقابل، جاءني هاجس أنك ستأتي إلى طرابلس ، منذ مدة وهذا الهاجس يسيطر عليّ ، وأنك ستأتي قريباً جداً ، سأودعكِ

أسراري، أخاف على خاتمتي ، أنتِ هدية السماء لأرحل شاكرا ، ستلتقين بزين الملقن، وسيطا بل أنتِ قادمة إلى طرابلس ، أراكِ الآن أمامي ، ستقرئين حزنا في وجهي وبقايا أنين ، و سوف ترجعين معززة بطاقة خلاقة وتقولين رأيتك يا زين ، عشت معك لست غريباً عليّ ، بل أين كنت ..؟ لم تأخرت كل هذه السنين ؟ ثم تذرفين دموعا بغزارة بعد الوداع .

لم يكن في مخططي ما يوحي بالذهاب إلى طرابلس لا بعد أيام ولا بعد أسابيع ولا حتى بعد عدة شهور ،هناك فقط أختي التي نجحت في دبلوم الدراسات العليا والتي تستعد لكتابة رسالة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، سامية هي فقط من تستعد للذهاب إلى طرابلس خلال أيام من أجل الحصول على الموافقة على موضوع رسالتها العلمية ومن أجل الحصول على بعض المصادر والمراجع من المكتبات هناك ، وسامية تفكر في اصطحاب والدتي معها ، أما أنا فموضوع السفر إلى طرابلس في هذا الوقت بالذات يعتبر من سابع المستحيلات ، فأنا مشغولة بدوراتي في مجال " الكمبيوتر " التي ستبدأ خلال أيام والتي ستؤهلني للتدريس في مدرسة المتفوقين وما إن تنتهي هذه الدورات حتى تبدأ الدراسة في مدارسنا ويبدأ الشتاء ، والامتحانات والتحضير والتصحيح ، ولا يمكن بأية حال من الأحوال تأجيل الدورة أو الغياب عليها .

هم يستعدون من أجل السفر وأنا أستعد لدورة الحاسوب العلمية ، اشتريت حذاءَ جديداً وحقيبة يد ، كراسة جديدة لكتابة الملاحظات ، وقلم أنيق .

لكن ما حدث بعد ذلك يفوق كل التصورات ، ما حدث جعلني أقف ذاهلة ، أجر خلفي كل علامات السؤال والتعجب ، كيف ؟ بل ألف كيف ولماذا ؟ ولما ، كانت خلفي وأنا أهبط السلالم عائدة من دورة الحاسوب العلمية وقد تأجلت خمسة وأربعون يوماً لعدم اكتمال النصاب القانوني ونقص عدد الأعضاء الذين من المقرر حضورهم لهذه الدورة ، دارت بي الأرض دورة سريعة ، صدمتني المفاجأة ، إذن سيتقرر ذهابي إلى طرابلس مع أختي ووالدتي ، اتصلت بأختي وطلبت منها أن تحجز لي معها في رحلتها على متن الخطوط الجوية الليبية الأفريقية للسفر والسياحة ، فهل ستفتح لي طرابلس منفذا للعبور إليها ، لكنني خائفة .

- الجان..والإنسان.. ما القاسم المشترك ؟

- أشعر بالعجز .

- أ،،ن..الألف والنون، لأنهما شبه متجانسين ، الإنسان غبي طاقاته خاملة ، يموت وهو متعفن غباء

لا يعرف من هو ؟ ، مغيب ، اهتماماته مادية.

- والجان ؟

- الخصم المتجدد

لا يذهب للإنسان ، الإنسان مغامر، يأكل الطعم، كل التقنيات منهم لكنها تتم بشخوص بشر ، فلاسفة..علماء..تجاوزوا عصركم ، بل يسخرون من تخلفكم ، النوتات الموسيقية منهم ، فن العمارة ، الحضارات ، الأهرامات

مسكين زين، تعذب تجرع كؤوس المرارة يقاوم ، كم من مرة عزم الرحيل لكن عبثا حاول ، مطية الاستفهام ، كلينيكيا منتهي يقاوم ، سلام يا آخر المحطات .

أخذت أردد كل التقنيات منهم لكنها تتم بشخوص بشر ، استوقفتني هذه الجملة ، أخذت أردد كل التقنيات منهم ، بدأت هذه الجملة تسترخي وتتمدد أمامي ، كل التقنيات منهم ؟ كيف ؟ .

هذه الجملة تستحق الوقوف كثيراً والتفكير والتأمل ، أنها تقلب موازين العادي .

- د.وسيم السيسي ادخلي على موقعه سيساعدك برؤيته له علاقة ، ذكي ربط الأمور بالذين هبطوا من السماء حسب أنيس منصور، لكنه موظف عندهم في خانة عالم .

ولا أدري من يقصد بالموظف عندهم ، هل يقصد د. وسيم أم يقصد الأديب المرحوم أنيس منصور ؟

(19)

هل ستفتح لي طرابلس منفذاً للعبور ، هذه المدينة أحببتها ولكم تمنيت أن أعيشها كأخر أحلامي ، أن تودع أسرارها في جوف قلمي ، أن أجوب مساربها كطيف هارب يتلاشى ، يعبر ثم يذوب بين بساتين الفل وعرائش الياسمين في حي ميزران ، ،لكم أود فتح باب هذا الحلم الجميل والأخير لقراءة زخارف ونقوش قوس ماركوس لتنبت أنقاض المدينة الفينيقية القديمة من الوهم ومن غبار التاريخ وتنبثق ، تخبرني الأطلال ماذا فعل الرومان "بتأملات" فيلسوفهم الأدبية ؟

ولجت باب البحر ، أعرف جيداً أن المدن لا تتشابه لكن طرابلس علمتني أن المدن كالنساء تماماً ، فثمة مدينة كالأم تشعرك بالدفء وتحنو عليك ولها رائحة طيبة كرائحة الجنة ، وهناك مدينة لا ترتاح إليها فهي رغم جمالها كالمرأة اللعوب سيئة السمعة ، هناك مدينة كالزوجة الطيبة الوفية تجعلك ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً مدى الحياة حتى لو عشت طوال حياتك متنقلاً بين المدن فأنك في النهاية تعود إليها دائماً ، هناك مدينة كالمرأة المزاجية ، وأخرى كالمرأة الثرثارة فهي تخبرك بكل شيء بمجرد وقوفك على سلم الطائرة ، ثمة مدينة كالعشيقة الحسناء فهي تثير شهيتك للكتابة ، يستفزك

جمالها ، يرهب قلمك ، تجعلك تسطراً نصاً كل يوم ثم تعود فتمحوه ، تبحث عن كلام يليق بجمالها كعروس البحر طرابلس .

تجذبني أسرار باب البحر ، جامع درغوت باشا ، جامع الناقة ،جامع شايب العين ، أحمد باشا وقرجي ، طرابلس مدرسة الفنون والصنائع ، طرابلس القلعة وحي بالخير والميزران ، طرابلس باب البحر وباب العزيزية ، باب قرقارش ، باب عكارة ، باب بن غشير وباب تاجوراء ،سوق الترك وسوق الثلاثاء ، سوق المشير .

ولجتُ الساحة أو ميدان الشهداء ، كان كأي ميدان أخر في العالم ، يرتدي حلة زاهية لا تليق إلا بعروس ، لكن الساحة الخضراء لها كاريزما خاصة ورائحة توحي بتاريخ زمن فائت لكنه

أتى بطيئاً مترجلاً ، حائماً بالمكان ، كان كثير الالتفات ، سريع الحركة ، عيناه الصغيرتان لا تستقران على شيء ، نظراته حادة ، باردة تحمل كل خوف وحذر الدنيا ، كان الرجل في بداية عقده السادس قد غزا الشيب رأسه ، يرتدي بدلة أنيقة سوداء اللون ، عندما أقترب مني أبطأ سيره ، شعرت بموجة عظيمة من الخوف والغضب تجتاحني ، لا كتب ولا أوراق بين يديه كما وعدني .

- سأضع بين يديكِ أعمق أسراري ، سأحدثك عن مرضعتي ، وعن عرافتي .

كان مرتبكاً متوتراً عندما جلس إلى جواري ، جلسنا متجاورين وهوة عميقة الأتساع أخذت تنشأ بيننا ، أمامنا ميدان الشهداء والسرايا الحمراء وخلفنا ساحة تعج بالأطفال والعائلات والنساء ، التقت نظراتنا لعدة ثوان ، أحسست أن نظراته لا تستقر على وجهي حتى تهرب بعيداً عني ، ثمة لمعة خبث مريبة تبرق من عينيه ، كانت ابتسامته صفراء باهتة ، وجملة الترحيب بي قصيرة ، متعثرة ، مرتجفة ، واهية ، شيئاً ما في شخصيته بدا غامضاً بالنسبة لي يجعله مجهولاً ، شيئاً ما بدأ يتهشم بيننا ، لم أكن أعلم أن رحلتي المتلهفة شوقاَ إلى طرابلس ستتوج بهذا اللقاء البارد الخالي من الصدق ومن الحرارة ، ها أنا ذي أمام زين أو علي لا أدري ، أحاول مد خيط واه بيننا بكلمات ود حاولت شحنها بعاطفة منطفئة ، هابطة ولكن عبثاً .

زفر بحدة ، تمتم متذمراً :

- ها هي السرايا الحمراء أمامكِ ، أنظري إلى ميدان الشهداء هناك والناس ، الباعة والغزالة والشاهي باللوز ، طرابلس هي طرابلس لم يتغير شيء سوى العلم والنشيد وصور الشهداء وعشاق المال والسلطة والخونة .

كانت كلماته تضرب في واد وأفكاري تهرب إلى واد أخر .

من الشخص الجالس إلى جواري ؟ هل هو زين حقاً أم طيف من أطيافه قد حل جواري في هيأة زين ؟

جاملته بكلمات سريعة مقتضبة ، نبست بعد سكون امتد لدقائق ليست طويلة

- ظلمك الموقع الافتراضي فأنت في الواقع أحلى من صورتك الشخصية الموضوعة في غلاف صفحتك العامة على الانترنت.

أرسل ضحكة جافة تمتم مرة أخرى متأوهاً :

- طرابلس هي طرابلس.

ثم مد يده مودعاً ، مدها ثم سحبها بسرعة ، ألتهمه زقاق المدينة القديمة لا يلوي على شيء هارباً مني ومن سذاجتي تاركاً نكهة الشاي باللوز عالقة في فمي وفي ذاكرتي وفي أعماقي .

شعرتُ أنه لم يعر أي انتباه لقدومي وهو القائل بالحرف الواحد ..

- آه لو نتقابل، جاءني هاجس أنك ستأتين إلى طرابلس ، بل أنتِ قادمة إلى طرابلس .

أكان لا بد أن ألتقي به ، انه الفضول والتوق إلى المعرفة وكتابة هذه الرواية التي سعيت وقطعت الألف كيلو متر بين البيضاء وطرابلس من أجلها ، أحزنني عدم اكتراثه لحضوري.

(20)

فوضى الكحل المحببة تحيط بالمكان المهيب ، تخط الوسوم والإشارات المبهمة ، الآثار الداكنة تعلق ببعض أهداب الرمش ، تختفي في أضيق مسافة بين الرمش المضطرب والجفن المرتعش ، تحرس سواد العين وتتعثر بالحلم في ليل الشتاء الطويل ، لم أتعود على غلق حلم خلفه يتعثر عطره وأنفاسه والدمع والعنبر ورائحة غربته ، ويعلق في أعطافه الحنين ، أطبقت جفوني وتركت له نافذة الحلم مواربة .

أطبقت جفوني وشددت على طيفه المتسرب ورائحة عطره وجبروت صوته الرخيم ذو النبرة الجنوبية العريقة المختلطة بنبرة أهل طرابلس ، الزاخرة بمفردات بدو برقة ، أطبقت جفوني ثم فتحتها على نافذة واسعة وكبيرة حيث تهب نسائم عليلة خلال شتاء " ديسمبري " رائق في مدينتي البيضاء الجميلة .

تطل نافذتي على حديقة بيتنا الكبيرة ، يواجهني السور المرتفع الذي يحيط بمنزلنا ويواجهني طيفه يرتسم كظل رجل ليلي باهر الحضور ، يشرق قبل إطلالة أول خيط باهت من ضوء الصباح و يرسل إشاراته الحبيبة في الظلام تحت جنح نور خافت ترسله ذبالة شمعة عاشقة لحظة غياب كهرباء المدينة .

يتقدم ظل الرجل من نافذتي ، يقترب فتتراجع خطواتي إلى الخلف ، يتقدم أكثر وأكثر وأرى يداً تخط شيئاً عليها ، تكتب بسبابة مرتعشة ، ثم يختفي كل شيء ، يتلاشى الظل واليد وتختفي السبابة لكن عبارة الحب المكتوبة بالبخار المتكاثف على زجاج النافذة تظل ساطعة في ذاكرتي ، كنت أدرك أن تلك العبارة الشاهقة المزخرفة بالمشاعر الفياضة تضج في حقيقتها بالخطورة والغموض ، تبعتني خطى الظل إلى سريري ، اندسست أرتجف تحت الأغطية وظل طيف الرجل مرسوماً على الجدار أمامي كحارسٍ أمين لا يتحرك إلا لكي يتفقد أشيائي الثمينة ، شعرت به يندس تحت الأغطية ويتجسس على أغلى ممتلكاتي ويطمئن إلى غنيمته الغالية حتى الصباح ، وأنا أرتجف خوفاً وبرداً وحباً .

في الصباح غمغم الطيف العاشق :

- انطلاقة سهم تساوي هدف .

لا أعتقد أن الذاكرة تخطئ ، ولا أصدق أن للقلب عثرة ولا يكمن بحال من الأحوال أن يأثم الحلم عندما يكون المبتغى فائق الجمال مثله ، لا يمكن أن يكون حضور ذلك الطيف زلة من زلات الروح ، أو هلوسة من هلوسات الفكر المشوش بمتطلبات صعبة المنال .

أعلن صباحاً على الملأ ، أعلن بصوت مغموس ببحة الاشتياق والهوس والجنون ، مغمور في ليلة كاملة من البكاء ، البكاء من

شدة الحضور و التبدّي والوضوح والسفور لدرجة النقاء ، أعلن من شدة جمال الحب وقوة لحظات الانصهار الرائعة .

أعلن أن هذا الطيف حقيقة وواقع وصدق وأن حضوره منزه عن الخطأ والزور والبهتان .

أعلن أنني من شدة واقعيته طلبتُ إليه أن يزول ، أن يأفل ، يختفي ، يحتجب ، يغيب

طلبتُ إليه أن يمتثل لطبيعتي الطينية ، أن يذعن لمرارة الواقع ، فزمنه يفوق زمني بملايين السنين ، طيفه لا يخضع لأبعادنا المكانية ، من المنصف أن يعود من حيثُ أتى ، من العدل أن ننفصل ، طلبتُ إليه أن نفترق .

كانت طبيعتي البشرية الشكاكة تناقض طبيعته ، أدميتي آلمته ، أنانيتي المفرطة صدمته ، غيرتي ، ثقلي ناقض خفته ، جسدي لم يحتمل وطأة جسده الأثيري الشفاف الخارق لمنافذي ، الثاقب لفكري وخواطري ، جسدي مشدود إلى الأرض وطيفه سابح في السماء ، القيود المفروضة على تكويني الطيني تخشى طبيعته الهوائية الحرة الطليقة .

تمتم وهو يبتعد ..

- تشبثوا بثقافتكم الملوثة ، أحذروا لعنات عوالمنا.

رفضته بشدة فودعني بتحية خاصة ألمتني وانطبعتْ في نخاع العظم ، ثم رحل ، كان طيفاً لا يتراءى إلا تحت ضوء الشموع الخافت ، اختفى ، أبتلعه ضوء النهار الفاجر .